(٣)

تتابع المواثيق

لم يعد بوسعنا أن نأخذ مسألة الاعتياد والألفة مع الكتاب المقدس أمرًا بديهيًا، سواء العهد القديم أو العهد الجديد. وربما تكون الملكة ڤيكتوريا قد وصفته بأنه كنز العالم الذى لا يقدر بثمن. وهو ما يزال يشكل قطعة من الأدب الإنجليزى لا تبارى؛ إذ إنه ملىء بالاقتباسات، مثلما قال أحد الأشخاص عن شكسپير ذات مرة. وقد تسربت أجزاء منه إلى اللغة العامة. ولكن الجهل ببقية الأجزاء هو السائد دون منازع، مع أن هذا قائم فى انجلترا بشكل أكثر منه فى أمريكا. وإذ رأى أحد أساتذة الأدب الإنجليزى فى جامعة إنجليزية كبرى أنه يحرز قليلاً من النجاح مع طلابه الذين يدرسون شعر ميلتون، فقد تعين عليه أن ينظم لهم فصلاً دراسيًا مكثفًا لدراسة الكتاب المقدس. إذ كان الكتاب المقدس بالنسبة لجيلهم كتابًا مغلقًا بالمعنى الحرفى للكلمة.

بيد أن هذا عمل له تأثير مباشر على التاريخ الإنجليزى والأمريكى أكثر من غيرهما. وعلى الرغم من أن المرء يتعاطف مع السخط الذى أحس به الأستاذ، فإن دراسة الكتاب المقدس دراسة خالصة باعتباره مصدرًا أدبيًا، وحتى لو كان الهدف تحقيق فهم أكبر لأشعار ميلتون، أمر يشكل ترتيبًا غريبًا للأولويات.

ذلك أن كريستوفر هيل فى دراسته المحددة، والتى تحمل عنوان "The English Bible and The Seventeenth Century Revolution" يقول إن الكتاب المقدس لعب دورًا كبيرًا فى سبك الوطنية الإنجليزية، وفى تأكيد تفوق اللغة الإنجليزية فى مجتمع كان منذ القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر محكومًا بالنورمان الناطقين باللغة الفرنسية. وفى سماحه بنشر نسخة إنجليزية من الكتاب المقدس، كان هنرى الثامن «مهتما بشكل أساسى بتأمين استقلال انجلترا السياسى عن

البابوية». وهكذا كان جزءًا حاسمًا من النضال لتأسيس أول دولة وطنية فى العالم مستقلة بنفسها(*).

وفى الثورات الإنجليزية التى وقعت فى القرن السابع عشر، تطلع كل الفرقاء صوب الكتاب المقدس يلتمسون العون والتأييد. ويؤكد هيل أنه بنهاية القرن الثامن عشر، وعلى النقيض من ذلك، لم يعد الكتاب المقدس يعتبر مصدرًا للحقيقة كلها، بل إن حركة التنوير تجاهلته بالفعل. ولكن الأحكام تأتى ضد الأدلة إلى حد ما. فربما لم يعد الكتاب المقدس تفسيرًا كليًا لكل شىء، كما كان من قبل. بيد أنه كان ما يزال صاحب تأثير كبير فى السياسات؛ بسبب سيطرته على الخيال العام على أقل تقدير.

ولذلك فإنه حينما يكتب «إنه لم يعد كتاب الثوريين» ـ مشيرًا إلى تأثير الكتاب على كروموبل والپيوريتان قبل قرن من الزمان ـ فإن رأيه صادق فقط على جانب واحد من الأطلنطى، وحتى فى ذلك الحين يكون قد أصاب الموضوع مباشرة. وكما توضح ليندا كولى بشكل مقنع فى كتابها الفذ Britons، فإن الديانة المرتكزة على الكتاب المقدس كانت فى مركز الأيديولوچية البروتستانتية للهوية البريطانية والتى استخدمت لجعل اليعاقبة متأهبين على مدى الشطر الأكبر من القرن الثامن عشر. وكون وظيفتها ثورية أم مضادة للثورة يتوقف على الجانب الذى يسانده المرء. فقد كان اليعاقبة أتباع الملك المخلوع الستيوارتى والكاثوليكى چيمس الثانى، وذريته الكاثوليكية، والذى أطيح به على يد من أطلق عليهم مؤيدو وليم ومارى اسم الثورة المجيدة. وقد استخدموا الكتاب المقدس لدعم ثورتهم، من ثم؛ ولكن ما إن تسلموا السلطة، حتى صار اليعاقبة بدورهم هم الثوريين، وحينئذ استخدم الكتاب المقدس ضدهم. ومن ناحية أخرى، فإن استخدام الكتاب المقدس ضد الثورة المجيدة لم يكن يهم اليعاقبة كثيرًا فى حد ذاته، على الرغم من أنه لقى كثيرًا من الاهتمام من رجال الكنيسة البروتستانت الذين بقوا على عهودهم التى أقسموا بها للملك الستيوارتى (من أسرة ستيوارت).

(*) ربما لو قال المؤلف «أول دولة وطنية مستقلة بنفسها فى العالم الحديث لكان كلامه صحيحًا؛ ولكنها المركزية الأوروبية، فقد كانت هناك أمم ودول، قبل القرن الرابع عشر بآلاف السنين ـ (المترجم).

وكان الكتاب المقدس فى الحقيقة هو كتاب الثوريين فى المستعمرات الأمريكية عندما اتسع النزاع مع البريطانيين حتى وصل إلى نقطة اللاعودة. ولم يتضح هذا على نحو أفضل من اجتماع الكونجرس القارى الأول، والذى اجتمع فى سبتمبر ١٧٧٤م عندما باتت الحرب مع انجلترا وشيكة. وعندما وصلت أنباء قصف المدفعية البريطانية لبوسطن إلى فيلا دلفيا، قام قس أسقفى أنجليكانى، هو المبجل يعقوب دويتشى، بقيادة المجلس فى الصلاة. ولم يكن من طائفة البيوريتان - والواقع أن هذا كان أحد الأسباب فى أن مندوب نيوإنجلاند، سام آدامز، اقترحه هو لقيادة الصلاة، رمزًا للوحدة فى وقت فريد فى الأزمة. ولكن النص الذى اختار أن يقرأه، والكلمات التى قالها عقب ذلك، يمكن فهمها بوضوح على أنها تجنيد للكتاب المقدس فى صف أمريكا فى الصراع القادم. فهو يضع أمريكا مكان إسرائيل، ويطلب دفاع الرب عن إسرائيل فى العصور القديمة متوسلاً بأنه سبب لكى يدافع عن أمريكا الآن. وبينما كان المندوبون يحنون رءوسهم، وكان المندوب القيرچينى چورچ واشنطن يشاهد راكعًا، وقد اختار دويتشى المزمور الخامس والثلاثين: «خاصم يارب مخاصمى، قاتل مقاتلى. أمسك مجنا وترسا وانهض إلى معونتى. واشرع رمحًا وصد تلقاء مطاردى. قل لنفسى خلاصك أنا. ليخز وليخجل الذين يطلبون نفسى. ليرتد إلى الوراء ويخجل المتفكرون بإساءتى ليكونوا مثل العصافة قدام الريح وملاك الرب داحرهم. ليكن طريقهم ظلامًا وزلقًا وملاك الرب طاردهم...».

(هذه هى الإشارة إلى «الملائكة فى الريح» التى أشار إليها چورچ دبليو بوش فى خطابه الافتتاحى الذى أوردنا فقرات منه فيما قبل). وينتهى المزمور بتذكير أن الذين اختارهم الرب لا ينالون مكافأتهم بالنصر على أعدائهم فقط وإنما بالرفاهية؛ ولكن عليهم فى مقابل ذلك أن يبقوا مؤمنين:

«لا تسكت ياسيد، لا تبتعد عنى. استيقظ وانتبه إلى حكمى يا إلهى وسيدى إلى دعواى. اقض لى حسب عدلك يارب يا إلهى فلا يشمتوا بى. ولا يقولوا فى قلوبهم هه شهوتنا. لا يقولوا قد ابتلعناه. ليخز وليخجل معا الفرحون بمصيبتى. ليلبس الخزى والخجل المتعظمون علىّ. ليهتف ويفرح المبتغون حقى وليقولوا دائمًا ليتعظم الرب المسرور بسلامة عبده. ولسانى يلهج بعدلك. اليوم كله بحمدك».

وبينما كان البيوريتان على ألفة بالفعل بأسلوب التبشير الذى يضع نيو إنجلاند مكان إسرائيل، فإن الأنجليكان الكثيرين الحاضرين لابد أنهم كانوا أكثر ألفة مع العادة التقليدية فى صلاة القداس (والتى تم تعديلها ومواءمتها من الممارسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى) فى رؤية كنيسة انجلترا - أو انجلترا فى جانبها الروحى - كما لو كانت **تحل محل بنى إسرائيل. وقد حدث فى افتتاح الكونجرس القارى سنة ١٧٧٤م، وبتلك القراءة والصلاة التى أعقبتها، أن أمريكا قدمت نفسها بصورة رسمية فى مكان بنى إسرائيل، وبذلك تطرد انجلترا من هذا المكان وتدعم الزعم البيوريتانى فى هذا الشأن بحيث يضم المستعمرات الثلاث عشرة جميعًا. وقد كان ذلك الامتياز هو حجر الزاوية الذى شيد أمريكا على فهم محدد لأغراض الرب. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا لم يعد الشعب المختار هم اليهود، ولا الكاثوليك، ولا الإنجليز، ولا سكان نيو إنجلاند فقط، ولكن كل الأمريكيين. ومنذ ذلك الحين فصاعدا «الكينونة الأمريكية»، مثل أن تكون يهوديًا أو مسيحيًا، كانت تعنى أن تحوز مكانة دينية متمايزة بوصفك واحدًا من المختارين.**

وفى القرنين التاليين بقى إحساس بأن الدخول فى المواطنة الأمريكية كان مثل بدء احتفال بلحظة دينية، تماما مثلما كان التعميد هو عملية بدء العضوية فى كنيسة مسيحية. فقد غيرت الشخصية الأساسية للفرد المهتم، والذى صار يعتبر منذ ذلك الحين - بشكل ثابت - فردًا خاصًا بطريقة لم تكن موجودة من قبل. والمتقدمون بطلب الحصول على المواطنة الأمريكية يأخذون مقررًا دراسيًا عما تتطلبه عضويتهم فى الجنسية الجديدة منهم، ويتم اختبارهم فيه، ثم يقسمون يمين المواطنة الأمريكية فى عملية قسم طقوسية بالولاء فى ظل العلم الأمريكى. وهى تفهم على أفضل شكل باعتبارها جزءًا من عملية مستمرة يتصور فيها الأمريكيون جماعتهم قائمة بفعل من أفعال الإرادة الإلهية، وهى عملية بدأت الآن تبدو كما لو كانت فعلاً من أفعال الدين. وفضلاً عن ذلك، فكل مهاجر بالغ يصير أمريكيًا يفعل ذلك بفعل إرادة، وهو أيضا فعل لإخضاع الإرادة. إذ لا يكون بوسعه بعد ذلك أن يكون هو نفس الشخص الذى كان من قبل: وإنما يختار بدلاً من ذلك أن يخضع لما يتضمنه «أن يكون أمريكيًا».

وقد يشك المرء فى أن كثيرين جدًا من الأمريكيين سوف يعترفون بأن صورة

أمريكا المثالية التى كتبها شاعر أمريكا والت هويتمان فى مقدمته لطبعة سنة ١٨٥٥م لمجموعته الشعرية «Leaves of Grass» ، هى صورة صحيحة. وما يحتاج غير الأمريكيين إلى أن يتذكروه أن هذا وصف لما يجب أن تكون عليه الأمور، وليس وصفًا لما هى عليه فعلاً، على الرغم من استخدام هويتمان للصوت المباشر. وبعبارة أخرى، فإنه يتخيل أمريكا فى الوجود.

«إن الولايات المتحدة نفسها - هى أساسًا - أعظم القصائد. . . وعبقرية الولايات المتحدة ليست أحسن أو أعظم فى رجالها التنفيذيين أو المشرعين، وليست فى سفرائها وكلياتها وكنائسها أو ردهاتها الفسيحة، ولا حتى فى صحفها ومخترعيها. . . ولكنها دائمًا أعظم فى عامة الناس. أساليبهم، كلامهم، ملابسهم، صداقاتهم - تجدد وصراحة نفسياتهم - والسعة البهيجة لحافلاتهم. . . وارتباطهم الحى بالحرية، والاعتراف العملى بالمواطن فى إحدى الولايات من جانب المواطنين فى كل الولايات الأخرى - وقسوة استيائهم إذا ما استثيروا - حبهم للاستطلاع وترحيبهم بالحداثة - اعتدادهم بأنفسهم والتعاطف المدهش - الشك فى أقل شىء - ورأيهم فى الأشخاص الذين لم يعرفوا أبدًا ماهو الشعور الذى يتولد فى حضور من هم أعلى - وطلاقة كلامهم - وفرحهم بالموسيقى، والشعور الأكيد بالرقة الرجولية والرشاقة الوطنية للروح. . . أخلاقهم الطيبة وكرمهم - والمغزى الرهيب لانتخاباتهم - وخلع الرئيس قبعته لتحيتهم وليس العكس - هذا أيضا شعر لا يُنشد».

ثمة تشابهات واختلافات مهمة هنا مع رسالة القديس بولس الشهيرة إلى أهل كورنثوس، وهى تتناقض إلى حد ما مع موافقة هويتمان على «قسوة استيائهم» و«الشك فى أقل شىء». تقول الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١٣ : ٤ - ٨):

«المحبة تتأنى وترفق. المحبة لا تحسد. المحبة لاتتفاخر ولا تنتفخ ولا تُقَبِّح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق، وتحتمل كل شىء. وتصدق كل شىء. وترجو كل شىء. وتصبر على كل شىء. المحبة لا تسقط أبدًا. وأما النبوات فستبطل والألسنة فستنتهى والعلم فسيبطل».

وعلى الرغم من هذه الاختلافات فى المحصلة، فإن التشابه بين عملية بدء المواطنة الأمريكية والطقس المسيحى لبداية المعمودية (سر المعمودية) قوى. كما أن

له نقاطًا مشتركة مع العملية التى بها يتم اعتناق شخص ما اليهودية. وقد تولّد هذا التشابه عن الطريقة المعتادة التى يتحدث بها الأمريكيون عامة وموظفو الحكومة خاصة عن رفاقهم الأمريكيين كما لو كانوا شعبًا يقف بمعزل عن بقية البشرية. وربما لا يكونون واعين بهذا، ولكن ليست هذه هى الكيفية التى تفكر بها أو تتحدث بها بقية جنسيات العالم عن أنفسهم. فالإنجليزى الذى يذهب للعيش فى فرنسا، حتى لو أخذ الجنسية الفرنسية وتحدث الفرنسية، لن يكون أبدًا أى شىء غير إنجليزى فى نظر نفسه وفى عيون جيرانه الفرنسيين. فهو لا يمكنه أن يريد لنفسه ألا يكون رجلاً إنجليزيًا. فهو يكون ما تخبره ذاكرته أنه هو. لا يمكن أن يؤخذ هذا ضده. كما أن رجلاً فرنسيًا يعيش فى انجلترا لن يتوقف عن كونه فرنسيًا.

هذه إجابة واحدة على أولئك الذين يجادلون بأنه، مهما كانت الطريقة التى ترى بها أمريكا نفسها فى أواخر القرن السابع عشر وفى القرن الثامن عشر، فإنها فقدت منذ وقت طويل إحساسها بنفسها ككيان دينى. فهل ما يزال الأمريكيون يفكرون فى أنفسهم باعتبار أن لهم مصيرا ليس من ابتكارهم تماما؟ وهل يفكر الأمريكيون فى بنى جلدتهم الأمريكيين باعتبارهم مختلفين ميتافيزيقيا ومعرفيًا عن بقية البشرية؟ إن الإجابة يجب أن تكون بنعم، وكل من هاتين العلامتين للتعريف تبدو كأنها قويت إلى حد كبير بفضل الحوادث الجارية، ومنذ الهجمات الإرهابية التى وقعت فى سبتمبر ٢٠٠١م. هذا الشعور بالمصير والإحساس بالخصوصية يذهب إلى تشكيل ما يسميه المعلقون الحديثون «الاستثنائية الأمريكية» (كما فى كتابين حديثين يحملان هذا الاسم، ألفهما سيمور مارتين ليبست وديبورا ل. مارسن). والاستثنائية الأمريكية ليست سوى فكرة الاختيار التى ترجع للقرن الثامن عشر (والانتخاب هى الكلمة الأقل شيوعًا، وهى فى هذا السياق لا تعنى صندوق الانتخابات) فى ثياب حديثة. وتسمية الاستثنائية الأمريكية ديانة، كما لو كانت أمريكا كنيسة يمكن أن تضم إلى مجلس الكنائس العالمى بصورة قانونية، هذه التسمية غلطة تصنيفية واضحة. وتسميتها ديانة بمعنى أن الإسلام ديانة يكون أقرب للحقيقة(*). وستارة الدخان الكبرى التى أخفيت وراءها هذه الرؤية الدينية

(*) يريد المؤلف هنا (القول بأن الإسلام ليست به هيئة كهنوتية وليست به كنيسة مثلما هو الحال فى المسيحية) - المترجم.

الأساسية لأمريكا فى التعديل الأول، هى الفصل بين الكنيسة والدولة ، وهو ما سنتأمله بمزيد من التفاصيل فيما بعد.

ويأخذ البريطانيون الأمر إلى الطرف المعاكس؛ إذ إن المتقدمين الذين يستوفون مؤهلات الإقامة وغيرها من مؤهلات التطبيع، حسبما يقول المصطلح، يتلقون خطابًا مقتضبًا من وزارة الداخلية يخبرهم بأنهم يحق لهم الآن أن يتقدموا بطلب الحصول على جواز سفر. والأمريكيون الذين يحصلون على الجنسية البريطانية - عادة فى شكل «جنسية مزدوجة» لا تتطلب منهم التخلى عن حقوقهم الأمريكية - يصطدمون عالميا بالتناقض المتطرف. وفى الوقت نفسه فإن البريطانيين قد بدأوا يفكرون فى أنه، تمامًا مثل متطلبات الإقامة، فإن متطلبات اللغة ستكون أيضًا عاملاً يساعد على إقامة علاقات جماعية طيبة. بيد أنه ليس هناك اتجاه إلى تحويل التطبيع البريطانى إلى سر مقدس كنسى خفى مثلما هو الحال فى أمريكا.

ومن الغريب أن هذه الوضعية الروحية المنافسة لم تظهر أنها تزعج أيًا من حراس الاستقامة الدينية فى أمريكا، ولا الكاثوليك أو البروتستانت أو اليهود أو المسلمين. وربما أعمتهم النظرية الدستورية بالفصل بين الكنيسة والدولة، فلم يلاحظوا أن أمريكا نفسها قد صارت كيانًا شبه دينى. وأما فيما يتعلق بالتساؤل عما إذا كانت معاملة العلم الأمريكى باعتباره مقدسًا ترقى إلى مستوى عبادة الأصنام، فإن الأمريكيين سوف يعتبرون مجرد ذكر هذا التساؤل تدنيسًا للمقدسات.

وكما لو كان يؤكد هذا التمييز، واصل مستر دويتشى قراءته للمزمور ٣٥ مع الصلاة، وفى كلمات هذه الصلاة صارت كلمة الأمريكيين هى الشعب، وهو أمر له مغزاه. وبفعل التكريس هذا أخضع الكونجرس الوطن الذى كان على وشك أن ينشئه لإرادة الرب فى مقابل حمايته، وهى الصيغة الكلاسيكية لميثاق الرب فى الكتاب المقدس. وقال دويتشى فى صلاته:

«أيها الرب أبانا فى السماء ، ملك الملوك وسيد الأسياد عاليًا قويًا، ومن عرشك ترى كل سكان الأرض، يا من تحكم بقوة عظمى مطلقة على كل الممالك والإمبراطوريات والحكومات؛ انظر برحمتك، تتوسل إليك هذه الولايات الأمريكية، التى هربت إليك لتلوذ بك من عصا الظالم، وألقت بنفسها تحت

حمايتك الرحيمة، راغبة فى أن تكون من الآن فصاعدًا معتمدة عليك فقط؛ إليك لجأت لتشكو عدالة قضيتها، وهى تتطلع إليك الآن طلبا للمساندة والدعم الذى لا يستطيع أن يقدمهما سواك؛ خذها إذن يا أبانا الذى فى السماء تحت رعايتك السامية؛ وامنحها الحكمة والمشورة... ولتكن حاضرا، بحكمتك يارب، ووجّه مشاورات هذا المجلس الشريف؛ وساعدهم على تقرير الأشياء على أفضل الأسس وأضمنها، بحيث ينتهى مشهد الدماء بسرعة، ويعود النظام والتوافق والسلام بصورة فعالة؛ وتسود الحقيقة والعدالة، والدين والتقوى وتزدهر بين شعبك».

وقد تأثرت مشاعر أعضاء الكونجرس بعمق. وفيما بعد كتب چون آدامز إلى زوجته: «لم أشهد أبدًا تأثيرًا أشد على السامعين. فقد بدا وكأن السماء قد رتبت قراءة ذلك المزمور فى ذلك الصباح...».

ولم تكن مصادفة أن أولئك الأكثر وعيًا بين السلالة الصاعدة من الوطنيين الأمريكيين تاريخيًا، اعتبروا التمرد الذى قام به كروميل ضد الملك سابقة للثورة التى يقومون بها؛ إذ إن المثال الذى ساروا على هديه لم يكن قائما على الفعل الذى قام به فقط، وإنما أيضا على ما تمثله أرضيته بالنسبة لهم. إذ إن البيوريتان يجادلون بأن لأى شعب مسيحى الحق فى تحرير نفسه من اضطهاد الطاغية، وهى مسألة تجد لها جذورًا راسخة فى الكتاب المقدس، ولاسيما فى العهد القديم. وكان هذا موضوع آلاف الخطب الكنسية قبل الثورة فى جميع أنحاء المستعمرات الثلاث عشرة. والواقع، أن الحرب الأهلية الإنجليزية والثورة المجيدة التى تلتها - واللتان أطاحتا بكل من الملك شارل الأول وابنه چيمس الثانى، الأول عن طريق الإعدام والثانى بواسطة النفى - صارتا تقريبا النموذج العالمى للثوريين الأوروبيين والأمريكيين. ومثلما تلاحظ بريدچت هيل فى كتابها «The Republican Virago» وهى دراسة لها عن حياة كاترين ماكولى، المؤرخة المفضلة بين من كتبوا عن توماس چيفرسون:

«كان الثوريون الإنجليز فقط هم الذين يوضحون التشابهات - سواء كانت خاطئة أم لا - بين السياسات الحالية وسياسات فترة ما قبل الحرب الأهلية. وعندما تفاقمت الأزمة فى العلاقات مع المستعمرات الأمريكية، كان كثير من أبناء الحرية يفسرون سياسة الحكومة تجاه المستعمرات فى ضوء التجربة الإنجليزية فى القرن السابع عشر. وفى تفسيرها للمراحل الباكرة للثورة الفرنسية فى ضوء ما حدث فى انجلترا القرن

السابع عشر، لم تكن كاترين ماكولى هى الوحيدة التى فعلت ذلك؛ إذ إن كثيراً من الثوريين فى تسعينيات القرن الثامن عشر ممن اهتموا بشرعية خلع الملك، وربما إعدامه، عادوا بأنظارهم إلى انجلترا القرن السابع عشر. وكانت إدانة ولعنة بورك للثوريين الفرنسيين، مثل ردود كثيرة منها رد كاترين ماكولى، هذه الإدانة استفزت وأظهرت التفسيرات المختلفة لإنجازات الثورة المجيدة سنة ١٦٨٨م. فبالنسبة لأولئك المفكرين الثوريين ماذا كان أكثر طبيعية من فحص ثورة سابقة وأخذ الدروس منها- بينما المرء قد بعد عنها بما يكفى للقيام بتحليل عقلانى غير عاطفى نسبيًا؟ وبالنسبة للفرنسيين كما هو بالنسبة للأمريكيين الثوريين، كانت هناك تشابهات يمكن تخريجها ودروس يمكن تعلمها من حوادث القرن السابق فى انجلترا. وكانت المعرفة عن هذه الأحداث تعتمد على فهم التاريخ الإنجليزى فى القرن السابع عشر. وكتاب التاريخ لكاترين ماكولى لم يلعب دوراً صغيراً فى تقديم الأساس لمثل هذا الفهم».

وبينما يتضح أن سابقة الحرب الأهلية الإنجليزية ساعدت فى حالة الوطنيين الأمريكيين، فإنهم كانوا أكثر تجريبية فيما يتعلق بالعلاقة مع حوادث سنة ١٦٨٨م. إذ كان النظام الذى أقيم فى مكان چيمس الثانى هو الذى أدى منطقيًا وبسرعة إلى ارتقاء آل هانوفر العرش، وأسبغ الشرعية على چورچ الثالث. وكان الثوريون الأمريكيون أشد اهتمامًا بالمناقشات التى قوضت شرعية الملك چورچ منهم بأية حجج ساندته.

وهناك إغراء يشد المرء إلى التساؤل عما إذا كان كريستوفر هيل، المؤرخ الإنجليزى المتميز والمتخصص فى فترة كروميل، يفهم تأثير الكتاب المقدس على السياسات الثورية فى القرن الثامن عشر فى كتابه بحيث يقدم رؤية مضادة المغزى الكامن فى كتاب المؤرخة الإنجليزية الممتازة بريدچت هيل. إنها فكرة بهيجة- فإنهما على أية حال زوج و زوجته، وكل منهما يدين للآخر بكرمه فى المساعدة بمراجعة كتبه. وسواء من خلال شهامة الزوج أم لا، فإن الزوجة تكسب الجدل. فإذا كان الكتاب المقدس هو الحاسم فى تشكيل ثورة القرن السابع عشر، وكانت ثورة القرن السابع عشر بدورها عامل الحسم فى تكوين الثورة فى القرن الثامن عشر، إذن فالكتاب المقدس كان حاسمًا فى ثورة القرن الثامن عشر أيضا. وربما لم يعد هو كتاب الثوار فى حالة الثورة الفرنسية. ولكنه كان كذلك فى أمريكا.

وتقول بريدچت هيل : إن ماكولى كان معجبًا بالمبشّر الأمريكى چوناثان إدواردز الذى كانت مواعظه الشهيرة عن نار الجحيم فى قلب الصحوة الأنجليكانية العظمى فى منتصف القرن الثامن عشر . وكما سنرى عندما ندرس أحدهما بدقة فيما يلى من هذا الفصل ، فقد انغمس فى رؤية للعالم مستمدة من الكتاب المقدس ومقتنعة بالدور المخصوص لأمريكا فى خطة الرب للخلاص . وتقول بريد چت هيل : «خلف أفكار إدواردز كانت هناك أيضا نزعة ألفية ، واعتقاد بأن الصحوة ألقت بظلالها على زمن وجب فيه على كل الأمم والبلاد أن تكون عامرة بالنور والمعرفة» . وهى تقرر أيضا أن المؤرخين يرون بشكل متزايد أن روحا جديدة من الفردية المتمردة عند إدواردز «تلعب دورًا مركزيًا فى تجهيز أمريكا للثورة» . ولكن مثلما سعت أيضا هيل للتوضيح ، كانت كاترين ماكولى نفسها مؤثرًا قويًا للغاية على الفكر الثورى . كما كانت نظرتها أيضا متأثرة بالكتاب المقدس بقوة ، بل إنها تميل إلى شكل معدل من الكالڤينية على الرغم من أنها لم تكن صحيحة تمامًا بمصطلحات المذهب الأنجليكانى فى القرن الثامن عشر .

والنظرة المستمدة من الكتاب المقدس لتاريخ العالم هى بالضرورة الإيمان بالعناية الإلهية . فقد كانت مصائر بنى إسرائيل القدامى تتشكل دائمًا بيد الرب الخفية ، سواء بالخير أو بالشر . ووجد كثيرون فى الرابطة التى تجمع بين العهد القديم والعهد الجديد مبررًا للاعتقاد بأن عمل الرب كان يؤدى إلى حادث نهائى ، ألفية دينية (تختلف نوعًا ما عن النوع الحرفى الذى تم الاحتفال به على مستوى العالم سنة ٢٠٠٠م) . وهذه الفكرة أيضا كان لها تأثير قوى فى أمريكا . وكثير من الآباء المؤسسين قرأوا كتابات كاترين ماكولى وقدروها . فقد امتدح بنيامين فرانكلين كتاب التاريخ الذى ألفته ؛ كما أن چيفرسون وضعه كمرجع مفضل ، واشترى كل المجلدات الثمانى ، ووضعها فى مكتبة جامعة ڤيرچينيا وكان چون آدامز يراه بمزيد من الإعجاب . وكانت هى المؤرخة التى كان يعرفها چورچ واشنطن أحسن من غيرها . وكذلك كان چوسياه كوينسى وبنيامين روسن معتادين على مؤلفاتها .

وكل هذا يوضح أهمية آرائها الخاصة فى العناية الإلهية ، وهى آراء لا بد أنها كانت مؤثرة للغاية فى هذه الأوساط . والواقع ، أنه فى السعى إلى توضيح أصول طريقة التفكير الأمريكية كلها ، تستحق كاترين ماكولى جدارة أكثر كثيرًا مما حصلت

عليه. ولا غرابة فى أن عميد المؤرخين الأمريكيين فى تلك الفترة برنارد بايلين، لا يجعل لها أهمية أكثر من ذلك. ففى كتابه The Idological Origins of The « American Revolution يقول فقط إن المؤرخة الجمهورية كاترين ماكولى، الذى سُمى كتابها الذى عنوانه «History of England» عملا خياليا لامتداح المبادئ الجمهورية تحت عنوان تاريخ انجلترا، كانت أيضا مفكراً مهمًا فى هذا الجيل من المستعمرين. . . » ولكنها ليست فى أهمية بعض الآخرين الذين أورد أسماءهم. أما ما كان يحول دون الإعجاب بماكولى بين المؤرخين المعاصرين. فكان بلا شك هو تجميعها المريب لأساطير ما قبل الغزو النورمانى وميلها إلى توجيه اللوم إلى النورمان فى كل شىء، الذين تزعم أنهم قد أضاعوا الفردوس الأنجلوسكسونى. كانت تلك نظرية غير سليمة، على الرغم من أن توماس چيفرسون وآخرين تقبلوها. ونحن هنا لا نهتم بدقتها التاريخية على أية حال، وإنما تأثيرها خصوصًا على الأمريكيين المعاصرين لها. إذ إن آراءها عن العناية الإلهية والألفية القادمة تستحق بالتالى أن تكون ماثلة أمام الممثلين الرئيسيين فى هذه الدراما كما حدث فعلاً. فهل هى آراء تنتسب للكتاب المقدس؟ لابد أنها قالت ذلك بالتأكيد. وتصفها بريدچيت هيل كما يلى:

«رأت كاترين ماكولى أحداث الحياة البشرية، باعتبارها ليست سوى سلسلة من أفعال العناية الإلهية الخيّرة، ولكن حينما كانت ترى و**«هى تعلن نفسها لصالح الكمال والسعادة المستقبلية للعالم الأخلاقى»** فلا عجب إذا انتقل الناس بواسطة **«الأمل والعرفان»**. وكتبت فى سنة ١٧٩٠م أن هذا كان هو ما فشل بورك فى أن يفهمه فى ردود فعل الناس تجاه الثورة الفرنسية. وتساءلت عما إذا كان قد سمع عن الألفية سوى تلك الألفية الخيالية التى يفترض وجودها فى مملكة القديسين. والرأى القائل بأن عقيدة ما بعد الألفية كانت مركزية فى معتقدات ماكولى الدينية هو رأى صائب. . . فقد صورت كاترين ماكولى طبيعة الألفية على أنها فترة من الزمن ينكسر فيها الصولجان الحديدى للهيمنة الاستبدادية، حينما يسود الحق على الأرض كلها، ويحل نظام سليم للمساواة فى توجه الإنسان. كان كل التحسن فى الناس والمجتمع يتجه صوب مثل هذه الألفية. كانت هذه خطة الرب للعالم، ولكن بالتعاون مع الناس يمكن للقوة أن تؤثر فى مجرى التاريخ».

وتهمة أن بروك كان يؤمن فقط «بألفية خيالية» توجد فى مملكة القديسين ربما كانت إشارة إلى تعاطف بروك المزعوم مع الكاثوليك الرومان، وهو تلميح مهلك ومدمر. وبدا وكأنها تقول إن البروتستانت الطيبين كانوا يعتقدون فى الألفية باعتبارها إمكانية قادمة، احتمال حقًا، فى العالم الحقيقى. وكسر الصولجان الحديدى للهيمنة الاستبدادية يمكن أيضا أن يكون قد سمع به مستمعوها المعاصرون باعتباره معنى، فى مصطلحات مستمدة من سفر الرؤيا، هو القضاء النهائى على المسيح الدجال (وهو البابا بعبارة أخرى).

وفى خلطة ماكولى التى تجمع بين غدم التملك والمذهب الجمهورى، والنزعة الألفية، من الصعب أن نتصور عبارات أكثر صراحة عما يكمن وراء المصير الواضح والحلم الأمريكى، ففى البداية كان المصير الواضح يحمل لونا مميزا من العداء للكاثوليكية. إذ كان أحد مهامه الأولى هو تحرير مناطق الجنوب فى أمريكا الشمالية التى تعيش تحت النير الإسپانى، أى الكاثوليكى. ولم تكن ماكولى أبدًا تحظى بشعبية فى انجلترا، حيث كانت متورطة لصالح چون ويليكس الذى كان أبرز الثوار المتشددين الإنجليز فى زمانه. ولم يكن يعجب كل الناس ولم تكن هى أيضا، على الرغم من أن المستعمرين الأمريكيين صنعوا منه بطلاً.

ولكن دورها يؤسس هذه الأيديولوچية الدينية، إذ كان اللجوء إلى الكتاب المقدس سعيًا وراء الدعم العام، ما يزال قوة لها وزنها فى الشئون السياسية فى القرن الثامن عشر. والواقع أن تأثير الكتاب المقدس فى الطبعة الإنجليزية كان غاية فى العمق منذ القرن السادس عشر فصاعدًا، ومن غير المصدق أن نفترض أن تأثيره كان يمكن إيقافه بطريقة ما فى القرون التالية. وبنهاية القرن السادس عشر يكتب كريستوفر هيل عن الطبعة الإنجليزية للكتاب المقدس:

«كان بحوزة كل العلمانيين المتعلمين، وحاز المبشرون البروتستانت المتشددون نقطة فى محاولة توسيع نطاق المعرفة به فى كل مستويات المجتمع. وبحلول القرن السابع عشر كان الكتاب المقدس مقبولاً بوصفه مركز كل مجالات الحياة الفكرية؛ إذ لم يكن مجرد كتاب دينى بالمعنى الحديث الضيق لكلمة دينى. فقد كانت الكنيسة والدولة فى انجلترا فى عهد أسرة تيودور شيئًا واحدًا؛ وكان الكتاب المقدس، أو

كان ينبغى أن يكون أساس كل جوانب الثقافة الإنجليزية. وعلى هذا المبدأ وافق معظم البروتستانت. وإذا لم نستوعب هذا فسوف نسقط فى هوة فوضوية بالحديث عن عصر أكثر تدينا من عصرنا. وفى معان كثيرة كان ذلك عصرًا أقل تدينًا من عصرنا».

وبعض التدريب على النقاط البارزة فى أساطير العهد القديم سيكون ضروريًا إذا ما كنا نريد أن نفهم تأثيرها الكامل. فهى لا تقرأ ببساطة لتاريخها. إذ كانت نبوءة أيضا. وتصف حكايات العهد القديم نماذج من السلوك الإنسانى تكرر منذ ذلك الحين مرات ومرات. ومنذ ذلك الحين وهى تقدم متشابهات من الكتاب المقدس يمكن أن تضىء الحالات المعاصرة. فهى تصف تعاملات الرب مع الأفراد القدماء والمجتمعات القديمة حينما تضل عن الطريق الصحيح. وهم ما يزالون فى ضلالهم اليوم، وسيكون الرب متسقًا فى استجاباته. ومنذ ذلك الحين يمكن استخدام قصص الكتاب المقدس للتنبؤ بالعواقب. وهى ليست مثل مسرحيات شكسبير مجرد توضيح للطبيعة البشرية والمواقف الإنسانية. وأن نقول عن البعض إنهم مثل هاملت فإننا نصفهم بالتردد وتمزق الوعى. ولكن مجرد التورية لا يخبرهم كيف يحلون المصاعب التى تواجههم، وهذه هى الطريقة البروتستانتية لقراءة الكتاب المقدس على أية حال، فإن وصف أحد بأنه مثل موسى أو يوشع أو سليمان، يعنى الإشارة إلى المسار الذى سلكه من قبل مع دعوة ضمنية إلى السير على هذا النهج مرة أخرى. والمصطلح الفنى لهذا الاستخدام المخصوص للتورية أوالمجاز الوارد فى الكتاب المقدس هو «التنميط». إذ إن موسى فى هذا الاصطلاح نمط وجد قبل ظهور المسيح. ومن الممكن أيضا لأفراد آخرين أن يكونوا نمطا، بهذا المعنى، بالعلاقة مع موسى، وليس هذا بيان كيفية استخدام كلمة نمط بشكل شائع، ولكى نتجنب الارتباك فإن هذا الاستخدام المخصوص لكلمة نمط سوف يتم تجنبه بقدر الإمكان. وهو معرف فى قاموس أوكسفورد الإنجليزى بأنه شخص أو شىء أو حادث فى تاريخ العهد القديم، يسبق فى تجسيد شخص ما أو شىء ما أوحى به فى التجليات الجديدة. وكلمة التنبؤ تعنى أمرًا أشمل من الرمز أو التمثيل.

وتكشف حكايات العهد القديم ببطء عن علاقة واحدة مستمرة من بدايتها: علاقة إسرائيل بربها. وبينما تتكشف يصبح من الواضح تدريجيا أنها ليست فقط

مفتاح العلاقة بين الرب واليهود، وإنما هى أيضا مفتاح علاقة الرب بالبشرية كلها على مدى الزمان. والرب اليهودى رب عالمى. وبهذا الفهم، يطورالرب علاقته بالبشرية من خلال ما يسمى المواثيق، وهى موافقات رزينة أوتعاقدات لها خاصية مقدسة. وأكثر المواثيق أهمية هو الذى يكافئ بنى إسرائيل بوضعهم كشعب الله المختار. وكثير من القصص التى تروى تصف نفاذ شروط ذلك الميثاق، لاسيما ما يحدث عندما يتم الإخلال بذلك الميثاق. وفى الفكر اليهودى، فى كل من العصور القديمة والعصور الحديثة، لا يمكن نقض الميثاق. فالرب دائمًا يصدق وعوده، حتى ولو لم يكن اليهود مخلصين فى وعودهم. وفى حالة عدم كونهم مخلصين، تتدخل العناية الإلهية لكى تفرض الفقر والطغيان والهزيمة فى الحرب، والأسر بل والنفى.

هذه الضربات التصحيحية المختلفة من يد الرب تنزل بالمعاناة دونما فهم ممن نزلت بهم، حتى يظهر نبى يشير إلى ما كان من خطأ وما يجب على الشعب أن يفعلوه حتى يحوزوا رضاء الرب مرة أخرى. إذ يجب عليهم باستمرار أن يعودوا إلى ممارسة القانون وفى مقدمته الوصايا العشر. ومن بين كل الوصايا، التى يستجلب انتهاكها أكبر نقمة مقدسة ليس السرقة أو القتل، وإنما عبادة الأصنام، والرب الذى يصوره العهد القديم رب غيور. وهناك سبب جيد لهذا. إذ إن فكرة الرب الغيور تخدم كنوع من الحماية لمثال التوحيد: أن هناك ربًا واحدًا، وحده. وإذا تقبل المرء التتابع الزمنى للكتاب المقدس الذى يضع النبى إبراهيم قبل الفرعون إخناتون، فإن اليهود إذن أول شعب فى التاريخ اعتنق مثل هذه الفكرة(*). والشعوب القديمة تسلم بأن العالم كان مليئًا بالآلهة. والارتداد من التوحيد إلى تعدد الآلهة كان أمرًا سهلاً. والطريق إلى الاتجاه الآخر كان صعبًا وعرًا.

هذا هو المعنى الحقيقى للاختيار. فهو لا يعنى بالضرورة أن الشعب المختار تحت حماية خاصة من الرب ورعايته المخصوصة؛ لأن هذا يمكن أن يعنى أيضا أن له طريقة خاصة فى تجاهلهم وعقابهم. وفى بعض الأوقات، حسبما اقترح بعض

(*) اليهود هم اتباع موسى عليه السلام. وكتابهم هو أسفار موسى الخمس (التوراة) ثم ما تلاها من أسفار العهد القديم من بعد موسى. وموسى من أحفاد يعقوب أو إسرائيل عليه السلام، الذى هو حفيد نبى الله إبراهيم عليه السلام، فكلام المؤلف تنقصه الدقة، ولا أحد يستطيع أن يجزم بمن هم أول الموحدين وأين عاشوا- المترجم.

الأحبار اليهود، ينسحب الرب حينما تكون حماية العناية الإلهية، لأى سبب كان، متوقفة. وحتى فى ذلك الحين يعنى الاختيار أنهم تحت عنايته الخاصة. **وكان هناك فكر يهودى، مثلا أن انسحاب الرب وتخليه عن حماية الشعب المختار خلال الهولوكوست النازى، كان هو الوسيلة للوصول إلى غاية توطين اليهود فى إسرائيل. وعلى الرغم من أن الفكرة قد تكون غير مريحة - سوى بالنسبة لأكثر الصهاينة المتدينين تشددًا - فإنها تلقى قبولاً لدى المفكرين اليهود أكثر من اقتراح أن الهولوكوست كان نوعًا من العقاب على ارتكاب الخطأ. وربما يلاحظ أنه على الرغم من أن الرب هو واضع القانون الأخلاقى، فإنه هو نفسه غير مقيد به.**

ولكن من المؤكد أن اليهود مقيدون به. فالاختيار يعنى أنهم تحت واجب خاص بأن يراقبوا خطواتهم؛ فعليهم التزامات إضافية؛ ويمكنهم أن يتوقعوا عقابًا إضافيًا إذا ما تعدوا بالعدوان. والغرض من اختيارهم، بعيدًا تماما عن أن يكون ذلك بسبب امتيازهم، هو ببساطة لكى يشيروا إلى خير الرب ووحدانيته قبل أى شىء. إنهم مختارون لكى يكونوا شهودًا مخصوصين على التوحيد. وهذا هو السبب فى أن عبادة الأصنام - أى عبادة آلهة زائفة، ورفض عبادة الإله الواحد - هى أسوأ أنواع الخيانة.

ويعلقّ الربای لويس چاكوبس فى موسوعته «The Jewish Religion» بأن بعض الباحثين اليهود قد اعتبروا أن اختيار اليهود علامة توضح أن اليهود لهم شرارة أو عبقرية مقدسة تجاه الدين مقارنة بالآخرين. والإحساس بالاختيار ربما يكون قد برز فى زمن كان فيه بنو إسرائيل وحدهم الموحدين، ويحيط بهم وثنيون يعبدون آلهة متعددة. فقد اختارهم الرب ليؤمنوا به. ويضيف:

«يفخر اليهودى العادى باقتناعه بأنه ينتمى إلى شعب له دور خاص يلعبه فى عالم الرب. ونادرًا ما كان مثل هذا الفخر يتعدى حدود التباهى غير الضار من جانب معظم الناس الذين يمارسونه بالنظر إلى المجموعة المعينة التى ينتمون إليها، أمتهم دينهم، بلادهم، أو حتى النادى أو فريق كرة القدم الذى يشجعونه. وبالفعل يؤكد كل المدرسين اليهود أن اختيار الرب لليهود ليس من أجل الامتياز وإنما من

أجل الخدمة. وفى أفضل الفكر اليهودى، أن اختيار اليهود تم بواسطة الرب ومن أجل الرب ولتحقيق خطته للبشرية جمعاء».

وبطريقة مشابهة، نُقل عن الربای الرئيسی ليهود بريطانيا العظمى السابق اللورد دكتور عمانويل چاكوبوڤيتس قوله فى كتاب Lord Jakobovits in Conversation: «هنا تبرير فقط لدرجة امتلاكنا القيم المبنية على أساس الديانة اليهودية، القيم التى تسهم بشىء فى العالم بأسره.. لوجودنا المستمر... إن مهمة شعب إسرائيل هى أن يعملوا كعلامة إرشاد للعالم كله. وربما نكون قد تعبنا من تحقيق هذه الرؤية، ولكن بدونها، ما هو الغرض من استمرارنا يهود؟».

لقد شعر أن غير اليهود قد أخذوا يرون مغزى اليهودية فى هذه المصطلحات أيضا، وربما هى نظرة تفاؤلية عن الكيفية التى يرى بها بقية العالم إسرائيل الحديثة - التى كان تأسيسها، من وجهة نظره، تم بفعل العناية الإلهية(*).

وتقليديًا، فإن الاختلاف الأساسى بين الفهم المسيحى والفهم اليهودى للميثاق يتعلق بالمسيح. وحسبما يعتقد المسيحيون، فإما يكون اليهود قد نقضوا الميثاق بشكل نهائى ولا رجعة فيه؛ لأنهم لم يعترفوا بمسيحهم عندما جاء، وهى النقطة التى عندها نفض الرب يده منهم؛ أو أن اليهود ظلوا مستمسكين بالميثاق برفضهم الإغراء بتركه استجابة لمزاعم زائفة بمسيحانية يسوع. **وفى الحالة الأولى افترض المسيحيون أن الميثاق قد استمر أو أعيد تجديده، ولكن منذ ذلك الحين فصاعدا كان الميثاق معهم وليس مع اليهود الذين بالتالى لم يعودوا «مختارين». ولذلك فإن عنوانى الجزئين الكبيرين للكتاب المقدس المسيحى، أى العهد القديم والعهد الجديد، ينبغى تسميتهما بشكل أكثر منطقية الميثاق القديم والميثاق الجديد.**

(*) ما سبق فى الاقتباسين السابقين، وغيرهما، هو ما يقوله اليهود عن أنفسهم بطبيعة الحال. وهو كلام لا يقنع أحدًا سواهم وطائفة من المسيحيين، خاصة البروتستانت، وخاصة الصهاينة من بينهم وأتباع اليمين المسيحى. أما فيما يتعلق بإسرائيل الحديثة فإن ممارساتها العنصرية والوحشية، وجرائمها المتكررة ضد البشر الآخرين من العرب مسلمين ومسيحيين، وعدم التزامها بالقوانين الدولية، والقرارات العديدة التى بنيت على أساسها، فضلاً عن عدم التزامها بأية قواعد أخلاقية - كل هذا لا يبرر الزعم بأن خلقها كان بفعل العناية الإلهية، وربما يكون الأصح القول بأن خلق إسرائيل الجديدة، واستمرارها حتى الآن، إنما هو فعل من أفعال العناية الإمبريالية والغفلة والضعف العربى - المترجم.

وقد أظهر الربای نورمان سولومون من جامعة أوكسفورد، فی ورقة غير منشورة ألقيت فی مؤتمر يهودی ـ مسيحی بالولايات المتحدة سنة ٢٠٠١م، التشابهات والتناقضات بين التعاليم اليهودية والتعاليم المسيحية التی تتضمنها النظريات المتنافسة لجوشانان نابشا، وهو مدرس يهودی بارز فی فلسطين القرن الثالث، وأوريجن أبو الكنيسة الذی كان يعيش فی قيصرية بفلسطين:

«علق كلاهما على نشيد الأنشاد الوارد فی الكتاب المقدس، وكلاهما فسره على أنه كناية ومجاز. وبالنسبة لأوريجن، فهذا النشيد يقف للرب أو المسيح وفخره، أی الكنيسة؛ أما بالنسبة لجوشانان فهو كناية عن الحب بين الرب وشعبه إسرائيل. وقد حلَّل رويڤين كيميلمان (١٩٨٠) تعليقاتهما ووجد خمسة فروق متسقة بينهما، يتعلق بخمسة مسائل كبرى هی التی قسمت المسيحيين واليهود:

١ ـ يكتب أوريجن عن ميثاق توسط فيه موسى بين الرب وبنی إسرائيل؛ وهذا اتصال غير مباشر بين الاثنين، وهو ما يتناقض مع الحضور المباشر للمسيح. ومن ناحية أخرى، يشير جوشانان إلى الميثاق على أن موسى تفاوض بشأنه، ومنذ ذلك الحين تلقاه بنو إسرائيل مباشرة من الرب مثل «ليقبلنی بقبلات فمه»، (نشيد الأنشاد، ١ : ٢) ويؤكد جوشانان الاختيار والحب بين الرب وإسرائيل، على حين يضع أوريجن مسافة بينهما.

٢ ـ وفقا لأوريجن، فإن الكتاب العبری كان مكتملاً، أو «تم تجاوزه» بالعهد الجديد. ووفقا لجوشانان، فإن الكتاب العبری يكتمل بالتوراة الشفوية.

٣ ـ بالنسبة لأوريجن، المسيح هو الشخص المركزی، يحل محل إبراهيم ويكمل محو خطيئة آدم، . أما بالنسبة لجوشانان فإن إبراهيم يبقى فی مكانه والتوراة هی «الترياق» الذی يعالج الخطئية.

٤ ـ بالنسبة لأوريجن القدس رمز، «مدينة سماوية». وبالنسبة لجوشانان القدس الأرضية تحتفظ بمكانتها كحلقة وصل بين السماء والأرض، المكان الذی سوف يتجلى فيه حضور الرب مرة أخرى.

٥ ـ يرى أوريجن أن معاناة بنی إسرائيل برهان على أن الرب تبرأ منهم؛ بينما يأخذ جوشانان المعاناة على أنها عقاب محب وتأديب من أب غفور.

ومنذ ذلك الحين فإن العهد القديم فى التراث المسيحى يبشر، ويتنبأ بالعهد الجديد. وإذا ما فُسخ الميثاق القديم، فإن الميثاق الجديد يحل محله ويتجاوزه.

وقد أصبح هذا يعرف فى العصور الحديثة بنظرية «الإلغاء» (أو نظرية الإحلال) وكانت محل انتباه شديد للغاية؛ لأن الباحثين المسيحيين واليهود عملوا سويًا لكى يقفوا على أسباب تاريخ هذا الشقاق الذى استمر ألفى سنة.

والحل الذى يطرحه الربای سولومون (فى الخطاب الذى أشرنا إليه بالفعل) كان يدعو كلاً من المسيحيين واليهود إلى اعتبار الحديث عن «الميثاق» مجازًا شعريًا، وليس باعتباره حقيقة موضوعية راسخة. فإذا كان «موضوعا»، فإن مجموعة واحدة فقط هى التى يمكنها امتلاكه، وسيكون عليهم أن يتشاجروا بسبب ملكيته. أما إذا كان مجازًا فإنه ببساطة يصف العلاقة بطريقة توضيحية: فهو لايفرض أية التزامات، ولا يعد بأى شىء فى المقابل. وتتمثل الصعوبة فى أنه بينما يمكن لهذا أن يخفف من حدة الزعم المسيحى بوجود ميثاق مع الرب إلى درجة لاتجعله يهدد الزعم اليهودى، فإنه أيضا يخفف الزعم اليهودى إلى الدرجة التى يبدو فيها أن الهوية اليهودية قد تم تقويضها. وإذا كان بوسع الجميع أن يختاروا تصور أنفسهم فى علاقة تعاقدية مع الرب، فإن المفهوم يصبح فارغًا من معناه.

وما أضفى صفة العجالة على هذه المهمة، فى أعقاب الهولوكوست النازى، هى الحاجة إلى فهم بزوغ معاداة السامية لكى يُتجنب حدوثها مرة أخرى. وعلى الرغم من أن معاداة السامية المسيحية غير عنصرية من الناحية النظرية، وربما يكون من الأصح فنيًا تسميتها معاداة اليهودية، فإن ثمة عاملاً مهمًا كان موجودًا على الدوام. فمن الصعب فصل العرق عن الدين فى هذه الحالة. وربما يكون شرح ذلك هو أن اليهود لا يتحدثون عن أنفسهم باعتبارهم مجرد ديانة، ولكن باعتبارهم أتباع دين يستمر خطبهم عدة أجيال من خلال الوراثة بدرجة كبيرة. واليهودى هو أى شخص ولدته أم يهودية. ويتلاشى هذا بسرعة فى المفهوم الحديث عن العرق، على الرغم من أنه حتى العصور الحديثة كان يناقضه الافتراض المسيحى بأن أى يهودى يتم تعميده يصير مسيحيًا. وعند هذه النقطة، بقدر ما يخص الكنيسة، لم يعد يعتبر يهوديًا. وثمة رؤية مسيحية معاصرة ستكون أقل فئوية. ففى العصور الحديثة كان

كل من الأسقف الأنجليكانى لبرمنجهام هوج مونتيفيورى، وكبير أساقفة باريس الكاثوليكى الكاردنيال چان ـ مارى لوسيتچيه ممن تحولوا من اليهودية إلى المسيحية، وكلاهما وصفا أنفسهما دونما لبس بأنهما يهوديان. وسيكون حقًا القول بأن الاستجابة اليهودية لهذا كانت متحفظة قليلاً. فعلى الرغم من أن اللياقة تمنعهما من الجهر بالقول بأن اليهودى الذى يصبح مسيحيًا ما يزال ينظر إليه باعتباره خائنا من نوع ما. [وماذا عن رد الفعل المسيحى إزاء هذا الموقف الغريب؟].

لقد سممت النزعة المسيحية لمعاداة السامية ومعاداة اليهودية أرض أوروبا على مدى مئات السنين، مما أدى فى النهاية إلى ظهور النازية فى القرن العشرين. ويتفق الباحثون المسيحيون الآن على أن موقف الديانة المسيحية الذى يحتقر اليهود يرجع إلى أصول الديانة المسيحية، حينما ظهرت نظرية الإلغاء للمرة الأولى. وهم لا يتفقون على ما إذا كان هذا يعنى أنه ينبغى التخلى عن النظرية (التى تقول إن العهد مع المسيحيين قد ألغى العهد مع اليهود)، أو ما الذى يمكن عمله بشأنها. وهكذا فإن الكاردنيال والتر كاسبر، رئيس بعثة الڤاتيكان للعلاقات الدينية مع اليهود، قال فى الاجتماع الذى خاطبه سولومون (الذى أوردناه سابقا) أن عقيدة الميثاق كانت «الموضوع المركزى فى الحوار اليهودى ـ المسيحى». وقال إن العلاقة بين الميثاق القديم لليهودية والميثاق الجديد مع المسيحية «معقد جدا بحيث لا يمكن النزول به إلى معادلة مختصرة».

والباحثون اليهود مشتبكون فى الموضوع بطريقة مشابهة. فهم لا يتفقون على ما إذا كانت نظرية الإلغاء سوف تؤدى بالضرورة إلى معاداة السامية، أو عما إذا كان من الممكن الإبقاء على النظرية بينما تظل معاملة اليهود بلطف ويستمر احترام معتقداتهم الدينية. وعلى أية حال، فإنه على أقل تقدير تحتاج نظرية الإلغاء الفجة إلى تعديل.

إنها كلمة جديدة فى لغة اللاهوت والعلاقات بين الديانات. وفى مؤتمر مشترك نظمه الڤاتيكان والمعابد اليهودية الإصلاحية فى بريطانيا العظمى سنة ٢٠٠٠م، لم يستطع الباحثون الواعون حتى أن يتفقوا على كيفية هجائها.

وأشد تبرؤ مسيحى وضوحًا ودرامية وتأثيرًا من نظرية الإلغاء - يؤكد أن اليهود ما يزالون مختارين، حتى ولو كانت الكنيسة محقة فى وصف نفسها بأنها مختارة أيضا - حدث خلال زيارة البابا حنا پول الثانى إلى إسرائيل سنة ٢٠٠٠م. فقد ذهب إلى الحائط الغربى فى القدس، الجزء الوحيد الباقى من معبد سليمان(*)، وصلى كما ينبغى ليهودى تقى أن يصلى، فى أكثر الأماكن قدسية بالنسبة لليهودية. وجريًا على عادة اليهود الذين يصلون عند الحائط الغربى، وضع ورقة تحمل صلواته الشخصية فى فتحة بالحائط. ويمكن القول إنه كان يستعير أحد خطوط اتصالاتهم مع الرب. وكان هذا توضيحًا لا لبس فيه أنه يؤمن أن القنوات التقليدية للرحمة والصلوات بين الرب واليهود ما تزال على فاعليتها. بل إن هذا تم توضيحه أكثر حينما نُشر نص صلواته فى وقت لاحق من ذلك اليوم. كان النص مكتوبًا بالإنجليزية وعلى خطاب فى أعلاه شعار الكرسى المقدس (البابوى)؛ وفى أسفله كان توقيعه، باللاتينية ونصّه: Johannes Paulus والتاريخ، وكانت تلك أفضل صلاة يمكن أن ينطق بها فى مثل هذه المناسبة، كانت توسلاً بغفران الخطايا الكبرى التى ارتكبها المسيحيون فى حق اليهود، وقال النص:

«يارب آبائنا، لقد اخترت إبراهيم وذريته لجلب اسمك إلى الأمم. نحن حزانى بعمق بسبب سلوك أولئك الذين تسببوا على مجرى التاريخ فى معاناة أبنائك ونسألك الغفران ونرغب فى أن نلزم أنفسنا بالأخوة الأصلية بشعب العهد».

(*) هذه أكذوبة صهيونية وواحدة من الأساطير التى تم الترويج لها فى غمرة العدوان الصهيونى على فلسطين، وهى إحدى الأساطير المؤسسة لإسرائيل. إذ إن البحوث الأثرية المحمومة طوال القرن الماضى لم تتمكن من إثبات وجود معبد سليمان. بالإضافة لأن العهد القديم، أى المرجع المعتمد لليهود والمسيحيين يتهم سليمان مرارًا وتكرارًا بالكفر وعبادة الأوثان. ومن ناحية أخرى فإن الحائط الغربى يرتبط بقصة الإسراء الواردة فى القرآن الكريم. وحقيقة الحائط الغربى (حائط المبكى) ترجع تاريخيًا إلى عهد السلطان العثمانى سليمان القانونى؛ فقد كان اليهود يؤدون صلواتهم فى عدة أماكن، وكان ذلك يسبب مضايقات للمسلمين؛ فأمر السلطان مهندسه سنان باشا أن يبنى لليهود سورا فى الناحية الغربية ليؤدوا صلواتهم فيه. ولم تظهر فكرة حائط المبكى باعتباره من أطلال معبد سليمان سوى فى عشرينيات القرن العشرين عندما اخترعت الحركة الصهيونية هذه القضية، وثارت بسببها انتفاضة البراق الفلسطينية ضد سلطات الاحتلال الإنجليزى التى استعانت بجنودها فى قاعدة قناة السويس لإخماد الانتفاضة. وحكمت لجنة دولية من عصبة الأمم بملكية المسلمين لهذا الحائط الغربى - المترجم.

ونظرية الإلغاء نظرية يصعب الحفاظ عليها حين يعلن البابا نفسه أن اليهود هم شعب العهد. حقًا هو لا يتحدث باسم كافة المسيحيين، كما أن معظم البروتستانت سوف يحتفظون على الأقل بصيغة مختلفة مخففة من نظرية الإلغاء لكى تشرح بالضبط العلاقة بين اليهودية والمسيحية. **ولكن تلك الأيام التى كان الاعتقاد المسيحى فيها بأن اليهود أخفقوا فى الاعتراف بأن المسيح هو مخلصهم يمكن أن يتحول إلى اعتقاد بأن اليهود ملعونون ومرفوضون من الرب بالتالى، ومن ثم يستحقون كل أنواع الإهانة - تلك الأيام ولت إلى غير رجعة.**

ولم يتم استكشاف المضامين بشكل كامل. فعلى الأقل ينبغى إعادة النظر إلى النصوص المسيحية المرجعية. وفى بعض الحالات ينبغى التعامل معها بوصفها سوء تفسير متعمدًا. وكما يخبرنا العهد الجديد، فإن كلاً من عامة اليهود فى القدس والسلطات الدينية اليهودية كانت لهم يد فى موت المسيح. وقد وجدته هذه السلطات مذنبًا بالكفر والتجديف وسلموه إلى المحتلين الرومان لعقابة (وكان الشكل المعتاد لعقوبة الموت فى مثل هذه الحالات هو الصلب). وعندما أعطى الغوغاء اليهود الفرصة لإنقاذه، قاموا بدلاً من ذلك بالمطالبة بموته وهم يصيحون حسب رواية إنجيل متى (٢٧ : ٢٥):

«فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا»

وربما لم يقولوا شيئًا من هذا النوع؛ لأن مبدأ الذنب الجماعى أو الموروث كان مناقضًا للأخلاقيات اليهودية (تثنية ٢٤ : ١٦) «لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء. كل إنسان بخطيته يقتل»(*).

ولكن ما يهم هو أنه قد سجل أنهم قالوه، وأخذته مجامع مسيحية لا تحصى منذ ذلك الحين بقيمته الظاهرية (على الرغم من أن فكرة أن الأولاد يمكن أن يكونوا مسئولين عن جرائم آبائهم تتناقض أيضا مع الأخلاق المسيحية. والكلمة التقليدية لهذا الاتهام هى قتل الرب. ولا غرو أن يوم الجمعة الحزينة الذى يعتبر تذكرة باليوم

(*) وكذلك تكرر فى العهد القديم عد مرات أن الله يتفقد ذنوب الآباء إلى الجيل الثالث والرابع من الأبناء، ولعن نوح كنعان بسبب ما فعله أبوه - المترجم.

الذى صلب فيه المسيح كان هو اليوم فى جميع أنحاء أوروبا الشرقية والوسطى الذى يبقى فيه اليهود الحساسون فى بيوتهم، ويمنعون أبناءهم من الخروج حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. وحقيقة أن مثل هذه الاحتياطات لم تعد موجودة بعد الحرب ليست راجعة إلى أن المسيحيين قد صاروا متسامحين، ولكن لأن جميع اليهود كانوا قد ماتوا بالفعل. وكانت الغالبية العظمى ممن نفذوا أوامر القتل من المسيحيين على الأقل من حيث تعليمهم وخليفاتهم. هذا هو الميراث المرعب لتعاليم الازدراء التى يرى كثير من الباحثين اليهود (وبعض الباحثين المسيحيين) أنها من التوابع الطبيعية لنظرية الإلغاء المسيحية.

وكانت آثارها ما تزال محسوسة فى القداس المسيحى حتى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. ثم عدلت الكنيسة الكاثوليكية مضامينها المعادية للسامية (والمعادية لليهودية بوضوح)، لتأمر بالصلاة يوم الجمعة الحزينة لتكون كالتالى:

«فلنصلى أيضا من أجل اليهود غير المؤمنين، حتى يزيل ربنا وسيدنا الغشاوة عن قلوبهم، حتى يعترفوا أيضا بسيدنا يسوع المسيح... الرب العظيم الخالد الذى لا يمنع الرحمة حتى عن اليهودى غير المؤمن، ولتكن الصلوات التى نقدمها لأعمياء الشعب، حتى يمكنهم أن يعترفوا بنور حقيقتك، التى هى المسيح، ويتم خلاصهم من ظلامهم...».

ومن الواضح أن المترجم الحديث قد احتار فى ترجمة Perfidiam و Perfidies وخلطها بالكلمة التقليدية Perfidious، بما تحمله من مغزى الخيانة وقتل الرب. وحتى مع هذا، فإن عبارة «اليهود غير المؤمنين» عبارة قاسية والكتاب الأنجليكانى لمجموعة الصلوات العامة فى يوم الجمعة الحزينة يتخذ نغمة أنعم قليلاً فى هذه النقطة:

«أيها الرب الرحيم، يامن خلقت جميع الناس، ولا تكره شيئًا صنعته ولا حتى موت الخاطئ، ولكن أن يعتنق الدين ويعيش؛ اسبغ رحمتك على كل اليهود والأتراك(*) والكفار والهراطقة، وانزع عنهم كل الجهل، وقسوة القلب، وازدراء لكلمتك، وبذلك تحضرهم إلى البيت أيها الرب المبارك، إلى شعبك حتى يتم

(*) المقصود بالأتراك: المسلمين- المترجم.

خلاصهم بين الباقين من بنى إسرائيل الحقيقيين، ويكونون قطيعًا واحدًا تحت راع واحد، يسوع المسيح سيدنا . . . ».

ووجود الأتراك والكفار فى هذا الخليط أمر شاذ قليلاً؛ لأن الإشارة إلى الباقين من بنى إسرائيل الحقيقيين يهدف إلى دفع الصلاة إلى اليهود وحدهم.

والحوادث التى جرت عقب موت المسيح - أى تدمير المعبد على أيدى الرومان سنة ٧٠م وشتات الشعب اليهودى فى أماكن أخرى من العالم المعروف - تم دمجها فى الأساطير المسيحية بمثابة أدلة على تخلى الرب عن اليهود. وكان فى هذا المناخ أن كُتب جزء كبير من العهد الجديد، متضمنًا فقرات توضح درجة عالية من العداء. ويصدق هذا بشكل خاص على إنجيل يوحنا، حيث يروى أن المسيح قد قال: (يوحنا ٨: ٤٢ - ٤٥):

«فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى لأننى خرجت من قبل الله وأتيت. لأنى لم آت من نفسى بل ذاك أرسلنى. فلماذا لا تفهمون كلامى. لأنكم لاتقدرون أن تسمعوا قولى. أنتم من أب هو أبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت فى الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب. وأما أنا فلأنى أقول الحق لستم تؤمنون بى».

والعلاقات بين الديانتين كانت قد انكسرت بالفعل مع وجود مبشرين مسيحيين مثل اسطفان اضطهدهم الوكلاء اليهود مثل شاول (الذى صار فيما بعد القديس بولس الحوارى) وعلى الرغم من أن المسيحية كانت لها جاذبية فى عيون الأغيار، فإن أول من اعتنقوها خارج إسرائيل كانوا من اليهود إلى حد كبير، وغالبًا ما كانوا من العبيد العبرانيين فى خدمة السادة الرومان. والمجادلة بأن الرب قد أغلق الكتاب على اليهود ولكنه بدأ مجددًا مع المسيحية، كانت مجادلة ضاغطة على أولئك اليهود المنفيين، واستخدمها الكتاب التبريريون المسيحيون الأوائل بطريقة مفحمة. وأوضح تقرير فى العهد الجديد «للاهوت الإحلال» (الإلغاء) يمكن أن نجده فى الرسالة إلى العبرانيين والذى لا نعرف يقينًا من الذى كتبها، على الرغم من أن التقاليد تعترف بأنه تأثر ببولس على الرغم من أنه لم يكتبه. يقول عن المسيح: (العبرانيين ٨: ٦ - ١٣).

«ولكنه الآن قد حصل على خدمة أفضل بمقدار ماهو وسيط أيضا لعهد أعظم قد تثبت على مواعيد أفضل. فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب لما طُلب موضع لثان؛ لأنه يقول لهم لائمًا هو ذا أيام تأتى يقول الرب حين أكمل مع بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهدًا جديدًا. لا كالعهد الذى عملته مع آبائهم يوم أمسكت بيدهم لأخرجهم من أرض مصر لأنهم لم يثبتوا فى عهدى وأنا أهملتهم يقول الرب. لأن هذا هو العهد الذى أعهده مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب أجعل نواميسى فى أذهانهم وأكتبها على قلوبهم وأنا أكون لهم إلها وهم يكونون لى شعبًا. ولا يعلمون كل واحد قريبه وكل واحد أخاه قائلا أعرف الرب؛ لأن الجميع سيعرفوننى من صغيرهم إلى كبيرهم. لأنى أكون صفوحًا عن آثامهم ولا أذكر خطاياهم وتعدياتهم فى ما بعد. فإذا قال جديدا عتّق الأول. وأما ما عتّق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال».

وما يؤسسه هذا ليس مجرد إحلال ميثاق محل آخر، أى إحلال الميثاق الذى أبرمه المسيح محل الميثاق الإبراهيمى/ الموسوى، ولكن ترحيل وإعادة توطن الشعب اليهودى - بيت إسرائيل وبيت يهوذا - بإسرائيل أخرى ويهوذا آخر، باستخدام نفس الاسم. وأن الشعب الذى تم عقد الميثاق الجديد معه، أى إسرائيل الجديدة ويهوه الجديدة، هى الكنيسة. وهكذا فإن رواية العهد القديم يُعاد تفسيرها باعتبار أنها تستمد معناها مما أدت إليه، أى قدوم المسيح.

وخروج بنى إسرائيل من مصر كناية عظيمة قوية عن عيد الفصح. وهكذا فإنه بينما أنقذ الرب شعبه الأول من العبودية الفعلية تحت قيادة موسى، كذلك فإن المسيح موسى الجديد يقود شعب الرب الثانى للخلاص من العبودية الروحية للخطيئة.

وعلى أية حال، كما يرد غالبًا فى الكتاب المقدس، يجب إزاحة تفسير بتفسير آخر. وربما كان القديس بولس، وربما لم يكن هو كاتب الخطاب إلى العبرانيين ولكن من المرجح أنه هو كاتب الرسالة إلى الرومان: رسائل بولس الرسول إلى أهل رومية: (١١: ٢٥-٢٩) التى تجادل بالمعنى المضاد:

«فإنى لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا هذا السر لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء أن القساوة قد حصلت جزئيًا لإسرائيل إلى أن يدخل ملؤ الأمم. وهكذا سيخلص

جميع إسرائيل. كما هو مكتوب سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب. وهذا هو العهد من قبلى لهم متى نزعت خطاياهم. من جهة الإنجيل هم أعداء من أجلكم. وأما من جهة الاختيار فهم أحباء من أجل الآباء؛ لأن هبات الله ودعوته هى بلا ندامة».

لأنها فى ترجمة النسخة المعتمدة، على الرغم من رشاقتها، غامضة جدًا بحيث لا توصل المعنى الكامل، ولذلك فنحن بحاجة إلى شىء أكثر وضوحًا، حتى وإن كان أكثر نثرية مثل ترجمة الكتاب المقدس الأورشليمية [أوردنا نص الترجمة السابق من طبعة أورشليم].

والواقع أن منطق ميثاق بنى إسرائيل مع الرب فى ثنايا العهد القديم هو أن اليهود ربما يكونون قد تمردوا وعصوا بشكل متكرر - بصفة مستمرة فى الحقيقة، بحيث إن أحد الباحثين اليهود أسمى الكتاب المقدس «كتابًا معاديًا للسامية» - بيد أن الرب حافظ دائمًا على هدفه من الصفقة، وعدم الاعتراف بالمسيح ربما يكون فعلاً آخر من عدم الوفاء - ويبدو من الواضح أن القديس بولس كان يؤمن بهذا - ولكن كما هو الحال دائمًا يبقى الرب مخلصًا لميثاقه على الرغم من هذا.

وكان على أساس هذه القراءة للكتاب المقدس أن أدان مجمع الڤاتيكان الثانى المعاداة المسيحية للسامية سنة ١٩٦٥م فى مرسومه Nostra Aetate:

«تنطق الكنيسة معترفة بأن كل الذين يؤمنون بالمسيح - ابن إبراهيم حسب العقيدة - متضمنون ضمن دعوة نفس أبى الأنبياء، وكذلك أن خلاص الكنيسة، قد تمت النبوءة به بشكل غامض بخروج الشعب المختار من أرض العبودية...

وكما يشهد الكتاب المقدس، لم تعرف أورشليم زمن زيارتها، ولم يقبل اليهود بأعداد كبيرة الإنجيل. والواقع أن عددًا ليس بالقليل عارض انتشاره. ومع هذا فإن الرب يبقى على اليهود أعز عليه من غيرهم بسبب آبائهم. وهو لا يندم على الدعوات التى أطلقها - وكذلك تكون شهادة الحوارى... وبما أن التركة الروحية المشتركة بين المسيحيين واليهود تكون بهذا كبيرة للغاية، فإن هذا المجمع المقدس يريد أن يرسى ويوصى بالفهم والاحترام المتبادل الذى هو ثمرة الدراسات اللاهوتية ودراسات الكتاب المقدس وكذلك بالحوارات الأخوية...

حقا أن السلطات اليهودية ومن تبع قيادتها قد ضغطوا من أجل موت المسيح؛ ومع ذلك، لا يمكن اتهام جميع اليهود الذين كانوا أحياء آنذاك، دونما تمييز، ولا ضد اليهود اليوم. وعلى الرغم من أن الكنيسة هى شعب الرب الجديد، فإنه لا يجب تقديم اليهود على أنهم مرفوضون أو ملعونون من الرب، كما لو أن هذا نابع من الكتاب المقدس».

وتعبيرات مثل «شعب الرب» و«الشعب المختار أو الشعب المخصوص» تستخدم عدة مرات فى العهد القديم للإشارة إلى بنى إسرائيل وإسباغ هذا اللقب بشكل محدد على المسيحيين فى العهد الجديد موجود فى رسالة بطرس الأولى (٢: ٩ـ ١٠):

«وأمّا أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكى، أمة مقدسة شعب اقتناء لكى تخبروا بفضائل الذى دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب. الذين قبلا لم تكونوا شعبًا وأما الآن فأنتم شعب الله الذين كنتم غير مرحومين وأما الآن فمرحومون».

وكلما كان القارئ لرسالة بطرس الرسول الأولى عارفًا أحسن بالكتاب المقدس، كلما فهم أكثر أن كلمة «شعب اقتناء» كانت وصفًا مميزًا للشعب اليهودى أعيد تخصيصها عمدًا لوصف المسيحيين. وربما سيجدها القارئ فى سفر الخروج (١٩: ٥ـ٦):

«فالآن إن سمعتم لصوتى وحفظتم عهدى تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب. فإن لى كل الأرض. وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة. هذه هى الكلمات التى تُكلّم بها بنى إسرائيل».

وفى سفر التثنية (١٤: ٢):

«لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكى تكون له شعبًا خاصًا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض».

وفى سفر التثنية (٢٦: ١٨ ـ ١٩):

«وواعدك الرب اليوم أن تكون له شعبًا خاصًا كما قال لك وتحفظ جميع وصاياه. وأن يجعلك مستعليًا على جميع القبائل التى عملها فى الثناء والاسم والبهاء وأن تكون شعبًا مقدسًا للرب إلهك كما قال».

وفى المزمور (١٣٥ : ٤):

«لأن الرب قد اختار يعقوب لذاته وإسرائيل لخاصته».

وعملية وضع اليد التى قام القديس بطرس بها للاستيلاء على عبارة «شعبًا خاصًا» قد حدثت أيضا فى رسالة بولس الرسول إلى تيطس، زعيم المسيحيين فى كريت، والتى لا تكتسب حياة أيضا سوى فى ضوء هذه الإشارات الواردة فى العهد القديم:

«لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس. معلمة إيّانا أن ننكر الفجور والشهوات العالمية ونعيش بالتعقل والبر والتقوى فى العالم الحاضر. منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح. الذى بذل نفسه لأجلنا لكى يفدينا من كل إثم ويطهر لنفسه شعبًا خاصًا غيورًا فى أعمال حسنة».

(رسالة بولس الرسول إلى تيطس ٢ : ١١ ـ ١٤).

وإشارة مرسوم Nostra Aetate إلى الخروج على أنه تبشير بـ «خلاص الكنيسة» هى قطعة نمطية من التنميط الكاثوليكى المعاصر. فهى تتصور الكنيسة على أنها جماعة مرئية مثل الأعداد الغفيرة من الإسرائيليين الذين هربوا من مصر، وكما تم إنقاذهم جملة، فهذا إذن نمط الخلاص المتاح للكنيسة ومن خلالها. ولكى تنال الخلاص عليك أن تكون كاثوليكيًا.

كان هذا المذهب فى كنيسة العصور الوسطى الذى أوجد الكثير من المصاعب التى واجهت المصلحين البروتستانت الأوائل؛ إذ إنهم رفضوا الكنيسة الكاثوليكية لا باعتبارها خطأ فحسب وإنما باعتبارها شرًا. وبحثوا فى الكتاب المقدس عن طريق بديل للخلاص. وإذا لم تكن عضوية الكنيسة الكاثوليكية هى الطريق الذى به يشارك المسيحى فى فعل المسيح الخلاصى، فأين كان إذن ذلك المجتمع الخلاصى الذى تحدث عنه الكتاب المقدس، شعب الرب الحقيقيون؟ هل يحتمل أن هذا الشعب خفى؟ أم أنه كان فى الواقع الدولة الوطنية البروتستانتية البازغة حديثًا؟ هل كانت هى انجلترا حقًا؟

وبالنسبة لأولئك الباحثين عن أيديولوچيا ترتكز عليها الدولة الوطنية، كان ذلك حلاً مغريًا، وأخذوا به. وفى حالة انجلترا فضلا عن ذلك بدأت حركة الإصلاح الدينى مع الملك هنرى الثامن وتنصّله من السلطة البابوية وتنصيب نفسه الحاكم الأعلى للكنيسة. ومثلما ذكرّه توماس مور، أن هذا من الناحية النظرية يجعل ملك انجلترا رئيس الكنيسة الكاثوليكية؛ وبنفس النظرية فإن الكنيسة التى يحكمها البابا (التى مات توماس مور مؤمنًا بها) لا يمكن أن تحمل نفس الاسم بصورة حقة بعد ذلك، فى انجلترا على الأقل. إذ لم يكن ثمة مكان فى أى لاهوت لكنيستين كاثوليكيتين حقًا، سواء جنبًا إلى جنب أو كانت إحداهما فوق الأخرى. فقد تحدث مرسوم نيقية فقط عن «كنيسة كاثوليكية ورسولية مقدسة واحدة». فإذا كانت هناك كنيسة تحمل هذه الصفة، فإن الأخرى لا تكون كذلك. ومن ثم هل كان من الممكن غرس جذور الدولة الوطنية البروتستانتية الإنجليزية فى تربة لاهوت كاثوليكى كنسى؟ وقد جعل هذا الفكرة غاية فى القوة والثبات. أما كيف تغلبت السلطات الإنجليزية على الاعتراضات التاريخية العادلة على هذا المفهوم المستحدث ـ وهى اعتراضات ساقها مور نفسه ـ فإن هذا ما سوف نتناوله فيما بعد.

والاستخدام اليهودى للتنميط فى التفسير كان على الدوام يتميز بفردية أكثر من الاستخدام الكاثوليكى أو حتى الاستخدام البروتستانتى؛ إذ إنه غالبًا ما يشير إلى الأفراد أكثر من الجماعات، ولسبب وجيه هو أن الجماعة اليهودية كانت ترى نفسها نمطًا فريدًا، وليست مجازًا لأى شىء آخر. وكان بعض التنميط الجماعى ما يزال ممكنًا بالربط بين الجماعات اليهودية اللاحقة بالجماعات اليهودية الباكرة. فعلى سبيل المثال، فإن وجبة التناول اليهودية هى تمثيل نمطى للخروج.

وغالبًا ما كان التنميط لأغراض التعليم والقدوة الأخلاقية. وإذا أخذنا القصة الواردة فى سفر التكوين الإصحاح الثامن عشر عن أن إبراهيم كان يقدم الطعام والشراب إلى الأغراب الذين كانوا يزورونه فى خيمته، فإن ما كان مهما ليست هى التفاصيل الدقيقة لكرم الضيافة الذى أبداه إبراهيم، ولكن المهم هو أنه فعل هذا. فقد كانت القدوة الطيبة هى المهمة. ويصف الربانى لويس چاكوب فى كتابه

«Companion to the Jewish Religion» إبراهيم فى التعاليم اليهودية باعتباره نمطًا قياسيًا:

«إنه الساعى إلى الحقيقة، هو الحكيم الذى اكتشف الرب بهدوء باستخدامه طاقاته العقلية حتى قبل أن يخاطبه الرب مباشرة. . . ومن ناحية أخرى فإنه يمثل الرجل المحب الذى يثق فى ربه ثقة مطلقة ويتبعه حينما يناديه. وفى القصة اليهودية القديمة يقول رجل إنه لا يريد لابنه أن يصبح بالضرورة عالمًا مشهورًا أو قديسًا ولكن «أن يكون ببساطة يهوديا مثل أبينا إبراهيم». وثمة فضيلة أخرى من فضائل إبراهيم هى كرم ضيافته. ويتصور المدراش الربانى خيمة إبراهيم على أن بها فتحات فى نواحيها الأربع بحيث يمكن لكل من يطلب المساعدة أن يدخل مباشرة من أى اتجاه جاء. . . ويتم تصوير إبراهيم على أنه شخص لا يتراجع عن عبادة الرب مهما كان الإغراء قويًا. ومما يثير الفضول، أن أحدًا من الربانيين التلموديين لم يكن اسمه إبراهيم، ربما لأن كل يهودى كان عليه أن يناضل لكى يصير إبراهيم آخر».

هذه الاستخدامات للكتب المقدسة أمثلة دالة على التنميط - وفى الحالة اليهودية، استخدام إبراهيم بوصفه نمطًا مثاليًا من الرجال؛ أما فى الحالتين البروتستانتية والكاثوليكية، فاستخدام الحكايات من التاريخ اليهودى باعتبارها سوابق مبشرة بحياة الكنيسة. **والكنيسة الكاثوليكية وبنات عمومتها الكنائس الأرثوذوكسية الشرقية تقدم فى قداسها وفى الصلوات اليومية إشارة إلى نفسها على أنها إسرائيل وأورشليم وشعب الرب والشعب المختار، وبشكل متكرر تذكر أنبياء إسرائيل الكبار على أنهم أنبياء الكنيسة. والقانون الكنسى الذى ينظم قداس الثالوث والمستخدم منذ القرن السادس عشر حتى سبعينيات القرن العشرين كان يجعل القساوسة يقدمون القربان «المقدس تماما والنقى الخالص» من جسد المسيح ودمه مع تلاوة الصلاة: «تفضل بالنظر إليهم بمحياك المحب الرحيم، وتقبلهم كما سرّك أن تقبل تقدمة خادمك هابيل العادل، وقربان أبينا إبراهيم. . . تقدمه مقدسة، ضحية ليست ملطخة».**

وأصداء المتشابهات من العهد القديم عميقة ومتنوعة، بيد أنها غالبًا ما تكون تلميحًا فقط بدلاً من التصريح بها. وهكذا يضحى إبراهيم (تكوين، الإصحاح

٢١) بكبش بدلاً من ابنه إسحاق(*)، وهابيل العادل (تكوين ٤) يقدم حملاً إلى الرب شكرا، قبل أن يقتله قابيل، وملكى صادق (تكوين ١٤ : ١٨ ـ ٢٠) يقابل إبراهيم ويعطيه الخبز والنبيذ (والذى يأخذه اللاهوتيون الكاثوليك على أنه السابقة التى أخذ عنها طقس الأفخار ستيا، أى القربان والتناول). بل إن ما هو أهم هو الإشارة الضمنية إلى الخروج، حيث أمر الرب كل إسرائيلى بذبح وأكل «حمل غير ملطخ» وذلك استعداداً لخروجهم من العبودية فى مصر. (ولابد أن المسيحيين كانوا على ألفة تامة بفكرة أن المسيح كان «حمل الرب» من إنجيل يوحنا (١ : ٢٩) «وفى الغد نظر يوحنا يسوع مقبلاً إليه فقال هذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم».

وفى سفر الخروج (١٢ : ١ ـ ٨):

«وكلم الرب موسى وهارون فى أرض مصر قائلاً: هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور. هو لكم أول شهور السنة. كَلِّما كل جماعة إسرائيل قائلين فى العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء شاة للبيت. وإن كان البيت صغيراً عن أن يكون كفواً لشاة يأخذ هو وجاره القريب من بيته بحسب عدد النفوس. كل واحد على حسب أكله تحسبون للشاة. تكون لكم شاة صحيحة ذكر ابن سنة تأخذونه من الخرفان أو من المواعز. ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر. ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل فى العشية. ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلونه فيها. ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويًا بالنار مع فطير على أعشاب مرة يأكلونه».

والمغزى هو أن القربان فى القداس (والذى يتضمن أيضا، فى عمل العشاء الربانى، أكل القربان المقدم) يعيد خلق قربان بنى إسرائيل. وكما لاحظنا سابقًا يكون التحرر هذه المرة من العبودية للخطيئة، وليس من العبودية فى مصر.

وما هو متضمن فى مثل هذه الإشارات ، أى أن النظام اليهودى القديم قد توقف وأن نظامًا جديدا (مسيحيًا) قد حلّ محله ـ مقرر بشكل أوضح كثيراً فى رؤيا القديس يوحنا لنهاية العالم الشهيرة فى سفر الرؤيا (٢١ : ١ ـ ٣):

(*) فى أصح القولين فى التراث الإسلامى، ضحى إبراهيم بالكبش فداءً لإسماعيل، وفى العهد القديم أن الكبش كان فداءً لابنه الوحيد، ولا ينطبق ذلك سوى على إسماعيل، ولكن جاء فى موضع آخر إسحاق بالاسم ـ المترجم.

«ثم رأيت سماءً جديدة وأرضًا جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فى ما بعد. وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتًا عظيمًا من السماء قائلاً هو ذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبًا والله نفسه يكون معهم إلهًا لهم».

هذه الرحلة فى الفهم الذاتى الكاثوليكى والأرثوذوكسى، تمسّ أسئلة مؤلمة عن الإلغاء وعلاقته بمعاداة السامية، وهى ضرورية إذا ما كان علينا أن نفهم ماذا حدث بعد ذلك: أى تطوير نظرية إلغاء بروتستانتية متمايزة تركز على الدولة ـ الوطنية الإنجليزية البازغة. فقد كان اليهود غير مخلصين لميثاقهم، وحل محلهم المسيحيون الأوائل. بيد أن الكاثوليك قد برهنوا أيضا عدم إخلاصهم لميثاقهم، ربما فى الوقت الذى كانت فيه البابوية قد ظهرت، فيما بعد الإمبراطور قسطنطين، باعتبارها إمبراطورية رومانية جديدة (وليس هناك اتفاق بين المصلحين البروتستانت الأوائل على التاريخ الدقيق الذى صارت فيه الكنيسة العالمية غير مخلصة؛ لأن وضع التاريخ فى فترة مبكرة جدا يمكن أن يدمر بعض القضايات التى آمنوا بها. وهم جميعًا يتفقون، على الأقل، على أنها كانت قد صارت غير مخلصة فى العصور الوسطى).

وهكذا كان من المفترض أن الكاثوليك أيضا قد تبّرأ منهم الرب. فقد كانوا بالنسبة للبروتستانت مثلهم مثل اليهود بالنسبة للكاثوليك. والحقيقة أنه ليس من الصعب أن نرى نتيجة أخرى نجمت عن هذا: أن الإنجليز بدورهم برهنوا على أنهم غير مخلصين لميثاقهم، ولهذا عقد الرب ميثاقًا جديدًا مع الأمريكيين. والمسيحيون الأمريكيون السود سرعان ما سيمضون بهذه العملية خطوة أبعد ـ لقد أخفقت أمريكا البيضاء، وبذلك تم تمرير الميثاق مرة أخرى. (انظر تحليل مقولة مارتن لوثركنج «أنا عندى حلم» فى فصل تال). كما أنها ليست مصادفة أن الهجوم الحانق واللاذع الذى بدأت الكنيسة الكاثوليكية تستخدمه فى معاملتها لليهود قد انعكس فى الهجوم المرير اللاذع الذى استخدمه البروتستانت الأوائل فى تعاملهم مع

الكاثوليك. وهو ما يوحى بأن جزءًا من المنطق المخبوء فى مذهب الإلغاء إنما هو رغبة من جانب الخلف لمعاقبة السلف الذين حلوا محلهم والحط من شأنهم وتدنيسهم؛ لأنه إذا كان الرب قد تبرأ من شعبه، فلا بد أنه كان لديه سبب قوى للغاية، والبديل هو أنه إذا لم يكن اليهود غير جديرين ببركة الرب، فإن مزاعم الكنيسة الكاثوليكية بالحلول محلهم وإلغائهم محل تساؤل؛ وإذا لم يكن الكاثوليك غير جديرين ببركة الرب، فإن مزاعم البروتستانت المماثلة تكون محل تساؤل.

وليس من الصعب أن نرى مثالاً آخر لهذا التحقير الإحلالى الضرورى فى الطريقة التى كان الأمريكيون الأوائل يفكرون بها فى الإنجليز (أو البريطانيين كما كانوا آنذاك). وقد كان من الضرورى الاعتقاد بوجود مؤامرة استبدادية بريطانية ضد الحرية بقدر أكبر مما يمكن أن تقدمه الأدلة والبراهين، وذلك لتبرير العصيان (وفى مصطلحات الاختيار لتبرير الإلغاء والحلول). ومثلما يلاحظ فوستر فى سياق آخر (مقتبسًا عن إرنست رينان): «إن خلق وطن يتضمن فهم تاريخ المرء بطريقة خاطئة». والحقيقة أنه فى أواخر القرن الثامن عشر كانت انجلترا وأمريكا متساويتين فى كونهما بلدين حرين، ولم تكن أيّا منهما قدوة يحتذى بها فى الحرية المدنية بمصطلحات القرن الحادى والعشرين. والواقع أن انجلترا كانت تسبق أمريكا بدرجة ما فى إلغاء الرق. وقد حكم رئيس القضاة اللورد مانسفيلد فى سنة ١٧٧٢م بأن چيمس سومرت، وهو عبد هارب من ڤيرچينيا تم إحضاره إلى المياه البريطانية، لايمكن إجباره على العودة إلى المستعمرات، موضحًا بذلك أن الملكية المطلقة لشخص واحد من قبل شخص آخر لم تكن أمرًا يعترف به القانون الإنجليزى. أما السير وليام بلاكستون، الذى كان أكبر حجة فى القرن الثامن عشر فى القانون الإنجليزى العام (الذى تم الاعتماد عليه كثيرًا فى مدارس القانون الأمريكية فيما بعد) فقد قال فى محاضرة له بجامعة أوكسفورد سنة ١٧٦٥م:

«إن فكرة وممارسة هذه الحرية السياسية أو المدنية تزدهر بأجلى معانيها فى هذه الممالك، حيث إنها تقرب من الكمال، ولايمكن أن نخسرها أو ندمرها سوى بحماقة وعدم جدارة من يمتلكها؛ إذ إن التشريع، وقوانين انجلترا بطبيعة الحال،

التى تم تطويعها بشكل خاص لحفظ هذه البركة التى لا تقدر بثمن حتى فى أحقر موضوع، وهو مختلف تمامًا عن الدساتير الحديثة للدول الأخرى، فى قارة أوروبا، وهى تضفى - عمومًا - سلطة تعسفية واستبدادية للسيطرة على أفعال الرعية لصالح الأمير أو عدد قليل من الكبار. وروح الحرية هذه مغروسة بعمق فى دستورنا، بل إن جذورها ضاربة فى أرضنا نفسها، بحيث إن عبدًا زنجيًا، عندما يصل إلى انجلترا، يكون تحت حماية القوانين، وبالنظر إلى كل الحقوق الطبيعية يصبح فى الحال رجلاً حرًا».

أما ما كان يلهب خيال المستعمرين الأمريكيين فى السنوات التى سبقت الثورة مباشرة، فكان هو الاقتناع بأنه على الرغم من تظاهر الإنجليز بأنهم محبون للحرية، فإنهم قد نسجوا مؤامرة لنزع الحرية الأمريكية تمامًا، وكانت المنازعات على ضريبة التمغة وعلى رسوم الاستيراد نذيرًا بالأسوأ الآتى. ويقتبس برنارد بايلين مثالاً على هذه الحال، هو قرار اجتماع عقد فى مدينة بوسطن سنة ١٧٧٠م أعلن أن «سلسلة من الأحداث، وكثيرًا من الأعمال الحديثة... توفر سببًا عظيمًا للاعتقاد بأن ثمة خطة عميقة ويائسة تم وضعها من جانب الاستبداد الإمبراطورى وتم تنفيذها جزئيًا، لاستئصال الحرية المدنية...». وبينما أخذ يعطى وزنًا كبيرًا لهذه الشكوك فى وجود مؤامرة قبيل العصيان، لم يجد أى دليل على مثل هذه المؤامرة نفسها. وهو يكتب:

«كان المستعمرون يعتقدون أنهم رأوا من غمار الحوادث التى وقعت خلال العقد الذى أعقب مرسوم ضريبة التمغة، نموذجًا ظهر لايمكن أن يخطئ أحد فهم معناه... لقد رأوا من حولهم بوضوح متزايد، ليس مجرد سياسات خاطئة أو حتى شريرة تنتهك المبادئ التى عليها استقرت الحرية، وإنما ما ظهر على أنه دليل يؤكد ما ليس أقل من الهجوم المتعمد من جانب المتآمرين الأشرار ضد الحرية فى كل من انجلترا وأمريكا. وكان الاعتقاد أن الخطر على أمريكا، إنما هو فى الحقيقة مجرد الجزء الصغير الظاهر مباشرة من الكل الأعظم الذى سوف يتضح نهائيا فى تدمير الدستور الإنجليزى، بكل الحقوق والامتيازات التى يتضمنها».

وكما لاحظنا فى الفصل السابق، فإن أحد المفاتيح المهمة للمقاصد البريطانية كان قد ظهر بسرعة فى التخفيف من مرسوم الاختبار فى كندا سنة ١٧٧٤م. إذ لم يكن فقط هدف بريطانيا هو استعباد المستعمرين تحت حكم ملك طاغية، وإنما كان سيتم استعبادهم بديانة مستبدة (الكاثوليكية) أيضا. (ولا حاجة للقول بأن هذا الحكم لم يكن قائمًا على أى تجربة بالظروف السائدة فى كويبك). ولم يكن الفرض الفعلى للطغيان هو الذى أشعل شرارة العصيان، على الرغم من أن إجراءات مثل وقف المحاكمة عن طريق المحلفين بدت بالتأكيد نذيراً بالأسوأ القادم، كما أعلن البرلمان فى سنة ١٧٦٦م أن له الحق فى أن يفعل هذا إذا كان يريد هذا. وفى مرسوم «لضمان أفضل لاعتماد أملاك جلالته فى أمريكا على التاج وبرلمان بريطانيا العظمى»، تم الإعلان عن أن البرلمان البريطانى «كان له الحق وله الحق فى أن تكون له سلطة كاملة لسن القوانين والمراسيم ذات القوة والحيوية الكافية لربط المستعمرات وشعب أمريكا... فى كل الأحوال مهما كانت». وبدا كما لو أن المذهب الإنجليزى عن الدولة الوطنية كاملة السيادة، والتى كان أول من أعلنها هنرى الثامن، قد أنتجت فى النهاية نظرية عن الحكومة البرلمانية، كانت فى جوهرها، استبدادية. وإذا ما كان بوسع الدولة الوطنية الإنجليزية أن تفعل كل شىء، بل وتغير وتخترع ديانتها إذا أرادت أو تعدم ملكًا أو تخلعه عن العرش، إذن فإن سلطة البرلمان تكون فى حقيقتها سلطات مطلقة.

وفيما بعد يلاحظ بايلين:

«كيف يمكن تقويم، أو تقويض، أو إعادة تفسير هذ العقيدة الجوهرية فى النظرية السياسية الإنجليزية، كانت هى المشكلة المركزية التى واجهت زعماء القضية الأمريكية؛ وليس هناك مشهد أكثر سحراً فى تاريخ الفكر السياسى الأمريكى من الجهود التى بذلت - بداية من الصراع مع انجلترا على مدى سلطة البرلمان واستمراراً مع المناقشات على إصلاح الدستور الفيدرالى - للوصول إلى حل لهذه المشكلة».

أما ما كان الإنجليز يعرفونه بحكم الألفة وما لم يكن الأمريكيون البعيدون يعرفونه، فهو أن نظرية السيادة البرلمانية المطلقة لم تكن سوى مجرد نظرية. وما كان يوقف السياسيين وخلفهم أغلبية عن دفع النظرية إلى حدود عبثية واستبدادية هو

الدراما الإنسانية للسياسات التى يتم توجيهها حسب النظام البرلمانى؛ إذ إن مجلس العموم ومجلس اللوردات كانت لهما قاعاتان صغيرتان نسبيًا وغالبًا مزدحمتان وتعجان بالضوضاء. وكان على السياسيين الذين يروجون لسياساتهم، كان عليهم أن يقفوا وهم ينظرون فى عيون معارضيهم الجالسين فى مواجهتهم على مسافة أقدام قليلة فقط ـ وهم يتهكمون، ويصيحون، ويلوحون، ويسخرون ـ على بعد يساوى طول سيفين فعلاً فى مجلس العموم (ولم يكن مسموحًا لأى سياسى أن يعبر خط الأمان الذى يحدد هذه المنطقة المحايدة). ولكى يواجه أولئك الذين أمامه عليه أن يحمل معه أولئك الذين خلفه، أى فريقه.

بيد أن تأييدهم لم يكن غير مشروط؛ إذ إن الزعيم السياسى المتعصب أو غير المحبوب سوف يجدهم يبتعدون عنه بسرعة. وحتى الصمت وراءه بدلاً من التأييد المسموع المعتاد، كان مؤشرًا خطيرًا. وقد حدث هذا مرات ومرات، وقد حدث فعلاً لإدارة اللورد نورث حينما لم يعد مؤيدوه يثقون فى متابعته للحرب الأمريكية. وسرعان ما انهار تحت وطأة النيران المضادة البرلمانية التى أطلقها الخصوم من أمثال تشارلز فوكس وإدموند بروك. وهكذا كان الطغيان تحت السيطرة، ولكن على مسافة تبعد ثلاثة آلاف ميل وأكثر لم تكن هذه الكوابح الإنسانية على نظرية السيادة المطلقة لم تكن تبدو أساسية بالقدر الكافى. وعلى أية حال، فإن المستعمرين كانت عقليتهم محكومة بالمؤامرة.

بل إن الاقتراح المعقول بتعيين أساقفة فى كنيسة انجلترا بأمريكا ـ وبدونهم كان على القساوسة الأنجليكان أن يعبروا الأطلنطى ليتم ترسيمهم ـ كان يعتبر محاولة لمد النموذج الإنجليزى فى الكهنوت، وهو مايعنى بالنسبة للبروتستانت الأمريكيين نوعًا من السلطة الدينية من الباب الخلفى. وقد رأى أتباع الكنيسة المشيخية على نحو خاص فكرة الأساقفة الأمريكيين باعتبارها خطرًا على مصالحهم. وسرعان ما كان چون آدامز يشكو من أن اقتران «الطغيان الزمنى والروحى» كان يمثل «كارثة على الحرية الإنسانية»، وأورد آراء الفيلسوف داڤيد هيوم القائلة بأن «فى كل عصور الدنيا كان الكهنة أعداء للحرية». وهكذا، كما يلاحظ بايلين «جلب الخوف من فرض أسقفية أنجليكانية إلى البؤرة، حزمة من الأفكار والمواقف والاستجابات التى

ترتبط بشكل حى بالروابط مع البابوية وأسرة سيتوارت والمذهب اليعقوبى التى تمتد قرنا فى الزمان، والتى دخلت مباشرة فى النزاع الثورى . . . ». ولذلك لم يكن ما ثار ضده المستعمرون هو الطغيان الفعلى، وإنما هو التهديد أو الخوف من طغيان ما. وطبقًا لإعلان الاستقلال نفسه «إن تاريخ الملك الحالى لبريطانيا العظمى هو تاريخ المظالم والاغتصاب المتكرر، وكلها تهدف مباشرة إلى تأسيس سلطة مستبدة طاغية على هذه الدول».

وبذلك كان التهديد بالطغيان هو نفسه استبداديًا، وهو ما يحمل بداخله منطقًا بعينه. وألم يقدم الكتاب المقدس أمثلة توضيحية تبين أن الملوك الذين صاروا طغاة قد تمت الإطاحة بهم؟

ودور كنيسة انجلترا فى هذا كله دور غريب. فمن ناحية، كما لاحظنا بالفعل، كانت الغالبية الكبرى ممن وقعوا على إعلان الاستقلال، على الأقل، أعضاء اسميين فى كنيسة انجلترا. وكان إكليروس تلك الكنيسة فى أمريكا، والذين يسمون الأسقفيين، مبرزين على كلا جانبى الحماسة التى اشتعلت فيما قبل الثورة. ولكن منذ بداية القرن الثامن عشر، إن لم يكن قبل ذلك، كانت كنيسة انجلترا مرموقة؛ بسبب أنها احتفظت بين أعضائها ببعض من أكثر نقادها صراحة. وفى الحقيقة، أن جزءًا من الاستقرار السياسى الذى ذهب بإعادة شارل الثانى إلى العرش، كان مفهوم الشمول الذى كان يعنى أن الكنيسة سوف تحتفظ داخل جدرانها بأولئك الذين يختلفون مع بعضهم البعض بشكل أساسى حول مسائل كانوا يعتبرونها حيوية. وقد اندمج خلفاء المحافظين فيما صار حزب الكنيسة السفلى، وتجمع الفرسان فى حزب الكنيسة العليا.

والرؤية العليا للكنيسة كانت تؤكد على أنشطتها الطقوسية ومكانتها المتجاوزة للطبيعة باعتبارها مؤسسة خلقها الرب، أما الرؤية السفلى فكانت ترى أنها ليست أكثر من تكتل ملائم للمسيحيين ذوى العقول المتشابهة. وكان معنى أن تكون عليا أن تكون أكثر كاثوليكية، وألا تهتم أكثر مما ينبغى بالتشابهات السطحية بينها وبين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وأن تكون الكنيسة سفلى كان يعنى أن تكون غير

واثقة فى أتباع الكنيسة العليا لهذا السبب بالذات. وفى القرن التاسع كان السفلير قد صاروا عمومًا أنجليكانيين (پروتستانت)، بينما صار العلويون أنجلو كاثوليك؛ وكان لكل جانب جمعياته التبشيرية وكلياته اللاهوتية الخاصة. ويوضح مصطلح «الأنجلو كاثوليك» وجهة النظر القائلة بأن كنيسة انجلترا جزء من كنيسة كاثوليكية أوسع، تشكل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية - على الرغم من أنها مخطئة فى بعض مذاهبها - جزءًا منها أيضا. وفى كل من انجلترا وأمريكا جرت التقاليد على أن بعض الأسقفيات الأنجليكانية سوف يشغلها على الدوام أساقفة من الكنيسة العليا، وبعضها الآخر يتولاها بصفة دائمة أساقفة من الكنيسة السفلى.

لم يكن هناك حب مفقود بين الكنيسة العليا والكنيسة السفلى، وكان للتقسيم - وما يزال له فى القرن الحادى والعشرين - شأن كبير بالمواقف تجاه روما. وأعلى القساوسة الأنجليكان فى الكنيسة العليا يمكن ببساطة الخطأ فى اعتبارهم قساوسة كاثوليكًا رومانًا، مثل بناياتهم الكنسية. وأدنى قساوسة الكنيسة السفلى الأنجليكان، من ناحية أخرى يختارون نقيضًا يكاد يكون پيوريتانيًا، سواء فى الملابس التى يرتدونها أو فى الطريقة التى يفرشون بها كنائسهم ويديرون بها احتفالاتهم. والكنيسة (الأنجليكانية) فى أيرلندا، التى كانت تقليديا كنيسة سفلى، لم تكتف بمنع الصليب الذى يجسد المسيح فوقه، ولكنها منعت أيضا الصلبان المجردة (التى لاتحمل شخوصًا) حتى الستينيات من القرن العشرين، على أساس أنه حتى الصليب المجرد - وهى فى انجلترا العلامة المميزة للكنيسة السفلى - كان صليبًا رومانيًا جدًا.

وربما لا تكون ثمة مفاجأة، إذا ما أخذنا فى اعتبارنا أن المجموعتين السابقتين اللتين شكلتا حزب الكنيسة العليا وحزب الكنيسة السفلى قد خاضتا حربًا أهلية مريرة فى انجلترا القرن السابع عشر، بحيث إنهما كانتا فى قلوبهما لا تثق كل منهما فى الأخرى على كل من جانبى المحيط الأطلنطى فى القرن الثامن عشر. والواقع أن بعض انحيازات المجموعتين الباقية ثقافيًا واجتماعيًا ودينيًا قدر لها أن تجرّ أمريكا إلى حربها الأهلية فى القرن التالى.

وفى مقدمته لكتاب «The Cousins Wars» يقول كيڤن فيليپس: إن الصراع الكامن فى الجانبين، والذى تحول إلى حرب ضَرُوس، فى انجلترا أولاً: ثم بينهم الإنجليز والأمريكيون وأخيراً فى أمريكا (الحرب الأهلية) يؤدى إلى صياغته للموضوع:

«أنه من القرن السابع عشر، عرف الناس المتحدثون بالإنجليزية فى كلتى القارتين أنفسهم بالحروب التى حافظت على ثقافة سياسية مرشدة من الكنيسة السفلى البروتستانتية الكالڤينية، بارعة تجاريًا، توسعية عسكريًا، ومقتنعة إلى حد كبير فى العالم القديم وفى العالم الجديد، أو فى كليهما، أنها تمثل شعبًا مختارًا ومصيراً واضحًا. وفى السياق الكامل للقرون الثلاثة، كان الفرسان والأرستقراطيون والأساقفة قد انسحبوا منها، على حين امتلك القيادة البيوريتان، والمقاولون العصاميون، الوطنيون الأنجلو سكسون والتوسعيون، وأصبحوا يمسكون بزمام الأمور، خاصة فى أمريكا».

ويوافق فيليپس جزئيًا مع مؤرخين آخرين ممن سلموا بتداعيات «ثلاثة مذاهب پيوريتانية على كلا جانبى الأطلنطى. وصل أولها إلى قمته فى منتصف القرن السابع عشر فى الحرب الأهلية الإنجليزية وانتصار كروموپل؛ ووصل الثانى إلى قمته فى نيوإنجلاند قبل الثورة الأمريكية مباشرة وكان عاملاً مهمًا فى قضاياها؛ أما الثالث فقد ظهر كذلك قبل الحرب الأهلية الأمريكية مباشرة:

«والفكرة ساحرة لأنها تساعد على التفرقة بين حركات الإحياء فى هذه الثقافات الثلاث - فهى جميعا ذات عقلية إصلاحية، ومشاعية وتجارية كما أنها صارمة دينيًا - وبين تأثيرات الإحياء والصحوات العظمى فى الجنوب الأمريكى (وقد يضيف البعض شمال انجلترا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر) والتى كانت أكثر عاطفية وأقل ارتباطًا بإصلاح الطبقة الوسطى أو القيم التجارية. وحروب أبناء العم الثلاث على أية حال تتطابق مع المذاهب الپيوريتانية الثلاثة على الرغم من أن هذا الكتاب سوف يترك اللاهوت لآخرين».

والمذهب الپيوريتانى، كما سنناقشه لاحقًا، هو شكل من المسيحية يضع تأكيداً

كبيرًا على العهد القديم، ويأخذ منه متشابهات مع الحاضر، وبذلك يرى أن هناك تشابهات قوية بين الجماعة البيوريتانية وبنى إسرائيل الذين يتحدث عنهم الكتاب المقدس، فكلاهما هم الشعب المختار. وفى داخل المذهب البروتستانتى كان عليه أن يرضى من حين لآخر بأشكال غير كالڤينية من المسيحية، سواء داخل المذهب الأنجليكانى أو فى الطوائف المنفصلة مثل المنهجيين Methodists. وأولئك - وهم إنجيليون أساسًا - يضعون تأكيدًا أكبر على العهد الجديد، ويرون أن هناك عدم استمرارية أكثر من الاستمرارية بين جزئى الكتاب المقدس، وحركات الإحياء والصحوات الكبرى التى يتحدث عنها فيليپس كانت أنجيلية، وركزت على جهود تحويل الناس إلى المسيحية بالتبشير العاطفى الذى تم تصميمه على أساس إثارة خوفهم من اللعنة وحاجتهم إلى المواساة الروحية. أما البيوريتانية فكانت دائمًا أكثر برودة من ذلك. ولذلك فإن التفرقة اللاهوتية التى يلمح فيليپس لها تكمن فى منطقة العهد القديم فى مواجهة العهد الجديد، والقدرية ضد الإرادة الحرة، أو الأرمينية(*) ضد الكالڤينية. وفى التاريخ الثقافى الأنجلو - سكسونى، يبدو المذهب البيوريتانى أكثر ارتباطًا بتقدم العلم (إسحاق نيوتن) أو بالثورة الصناعية (آدم سميث)، كما أن المذهب الإنجيلى قد ارتبط بالإصلاح الاجتماعى (ويلبر فورس وشافتسبورى). ولاشك فى أن المذهب البيوريتانى كان هو المذهب الأكثر تشددًا وتحزبًا، ويدخل إلى أعماق الروح. ولايمكن أن يكون ثمة شك أيضا فى أن الفرسان كان لديهم الكثير المضحك.

بيد أن صعود البيوريتانية وسقوطها فى بريطانيا يختلف قليلا فى إيقاعه؛ لأنه كان مرتبطا فى البداية بصعود الاقتصاد السياسى (الرأسمالية التى تؤمن بالحرية الاقتصادية Laisser - Faire) فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم مع التوسع الصناعى العظيم فى النصف الثانى من هذا القرن. وكانت أمريكا الشمالية متخلفة عن هذه الدائرة بحوالى نصف قرن من الزمان، على الرغم من أنها حينما أخذت تقوم بالتصنيع فاقت بريطانيا التى كانت القوة الصناعية الأولى فى العالم. **وكان أثر التصنيع فى بريطانيا كبيرًا؛ إذ إنه أدى إلى النمو السريع للمدن مصحوبًا**

(*) نسبة إلى آرمينلوس Arminlus (ت ١٦٠٩) وهو لاهوتى پروتستانتى كان يعارض آراء چون كالڤن لاسيما فى القدرية - المترجم.

بتحركات واسعة المدى للسكان من المناطق الريفية، ومصحوبًا كذلك بالفقر والجريمة وتدهور مستويات الصحة والإسكان، والنضال الصناعى والشغب من أجل الإصلاح السياسى. كانت بريطانيا بلادًا واقعة تحت ضغط اجتماعى لم يسبق له مثيل. والميثودية(*) هى التى يُعزى إليها غالبا فضل إنقاذ بريطانيا من الثورة فى القرن التاسع عشر، ولكن يعزى إلى الميثودية أيضا فضل ظهور اتحادات العمال وحزب العمال. (وكانت اجتماعات هذه الطائفة غالبًا أول مذاق للديموقراطية والمساواة تجربه الطبقة العاملة على الإطلاق).

وقد فشل فيليبس أيضا فى أن يجذب الانتباه إلى اختلاف كبير بين الإنجليز والأمريكيين فى زمن الحرب بينهما: وهو أن الأمريكيين كانوا فى ذلك الوقت أكثر «تدينا» بكل معنى الكلمة. لقد كانت الديانة الإنجليزية فى القرن الثامن عشر آخذة فى الركود. وربما كان الناس الذين أرهقتهم الانتفاضات الدينية فى القرنين السابقين، قد قنعوا بأن يتركوا المسائل تنساق مع التيار، والكنيسة تنساق معهم. وكان أحد تأثيرات إعادة الملكية هو تركيز السلطة على الكنيسة بأيدى طبقة أثرياء الريف، وكان هؤلاء من أعيان الريف الصغار والمتوسطين الذين يمارسون الفلاحة والصيد ويتزاوجون فيما بينهم، وكان لديهم خدم فى البيت وعمال فى الأرض، وكان القسيس المحلى مفيداً لهم كوكيل يحفظ القانون والنظام والتوافق الاجتماعى والأخلاقى. وكثير من أثرياء الريف، بجانب كونهم موظفين محليين، كان بوسعهم أيضا أن يمتلكوا مصادر معيشة الكنيسة المحلية الأبرشية - من خلال نظام كان يسمى الحماية، كان من حقهم تعيين من سيكون شاغل الوظيفة التالى من الأحياء، على الرغم من أنه إذا ما تم تعيينه، فإنه يتمتع بحق ما كان يسمى حرية القسيس - بحيث يضمن حيازة وظيفته والدخل الكافى. وكان الرجل الذى يمتلك مصادر المعيشة مسئولاً أيضا عن الحفاظ على الكنيسة؛ ولذلك كان هذا امتيازًا مكلّفا فى بعض الأحيان.

وكان أثرياء الريف الذين يمتلكون أرضًا هم العمود الفقرى لما كان يسمى «برلمان

(*) الميثودية طائفة بروتستانتية أسسها چون ويزلى سنة ١٧٣٠م - المترجم.

الفرسان» الذى تشكل بعد عودة شارل الثانى، وكانوا هم الذين يرسمون خط التسامح مع الكاثوليك الرومان عندما قام دوق يورك، والذى صار فيما بعد الملك چيمس الثانى، باقتراح ذلك. وكان التسامح إزاء الانشقاق ـ انشقاق طوائف البروتستانت والطوائف التى انشقت عن الأنجليكان ـ أكثر سهولة بالنسبة لهم. بيد أن ديانة القرن الثامن عشر صارت أسرع بالتدريج، وعندما حاول شارل وچون ويزلى توجيه الأمور بحملاتهم التبشيرية الوطنية، استاء كل من القسيس المحلى وثرى الريف من التهديد الذى يواجه سلامهما. وكانت هذه قاعدة غير محتملة لمؤامرة أسقفية إنجليزية للإطاحة بحريات المستعمرين الأمريكيين، وما أن انتهى آخر عصيان يعقوبى (١٧٤٥م)، حتى كانت العاطفة البورجوازية الإنجليزية لا مبالية وراضية عن نفسها. وكانت طريقة التعامل مع الدين ليست هى إثارة الكثير من الضجة حوله.

بيد أن هذا لم يكن الانطباع السائد على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى. فقد كانت لدى الإنجليز خطة ـ حسبما اعتقد المستعمرون ـ لجلب كل رعايا التاج داخل جماعة الكنيسة الرسمية. وكانت جمعية الترويج للإنجيل، التى تأسست أصلا للتبشير بالمسيحية بين الهنود الحمر، محل شك بأنها طابور خامس تهدف إلى سحب أتباع المسيحية المخالفة؛ ليكونوا بين ذراعى الكنيسة ـ وهو ما كان يعنى فى عرف القساوسة الهيمنة الأسقفية، وتفوح منه رائحة السلطة البابوية. وإذ لم يكن لديهم أساقفة يخصونهم، كان من السهل المبالغة فى قدر الفعالية التى يمكن أن يكونوا عليها. والواقع، أنه فى هذا الوقت بالضبط كان المستعمرون يعرفون أن الأساقفة الإنجليز كانوا يظهرون ما هو مضاد تمامًا للحمية الدينية، التى كان يفترض أنهم يشعرون بها؛ إذ إنهم كانوا يرأسون مجتمعًا دينيًا كاسدًا ولم يكن لديهم مفتاح التعامل معه، كما أنهم لم يهتموا بهذا كثيرًا. وكان ما يناسب أكثر كونهم من الأعيان أصحاب الأراضى الذين يمثلون طبقة أرقى. وهذه القراءة الخاطئة للمخططات الأسقفية حول الحرية الدينية الأمريكية كانت مثالاً كلاسيكيًا كافيًا على الإسقاط ـ فقد افترض البيوريتان فى نيوإنجلاند أن الأنجليكان الإنجليز كانوا متطرفين فى حماستهم، لأنهم غير قادرين على تصور أحد أقل استثارة بالأفكار الدينية

منهم. وكانت أقسام كبيرة من السكان، وهم من الأنجليكان على أية حال، لم يتم ضمهم- «لايمكن إقناعهم بسهولة بأن الحرية كانت تتهددها مؤامرة يحيكها رجال الكنيسة» على حد تعبير بايلين.

ومع هذا ولاسيما فى نيوإنجلاند فإن الرغبة المشروعة لدى الأنجليكان فى أن يكون لهم قساوستهم الذين يخصونهم زرع الشك فى أن المقصود كان أسوأ بكثير. فلماذا تمت المبالغة فى الخوف من الأساقفة بهذه السهولة؟ هذا هو ما يستحق مزيداً من البحث. هناك فى الحقيقة تشابه ملحوظ بين الخوف الأمريكى قبل الثورة من وصول الأساقفة الإنجليز سنة ١٧٧٠ والخوف الإنجليزى فى العصر الفيكتورى من وصول الأساقفة الكاثوليك سنة ١٨٥٠م، كما أن بعضًا من البلاغة المسرفة كان فى الحقيقة متبادلاً فى الحالتين. فعندما عرف أن البابا اقترح تعيين أساقفة كاثوليك فى انجلترا، قامت جريدة «The Times» اللندنية بقيادة الضجة العامة بمقالة بارزة أدانت «أحد أكبر أفعال الحماقة والوقاحة التى غامر بلاط روما بارتكابها منذ أطاح التاج والشعب فى انجلترا بالنير الرومانى...».

ومن الواضح أن هناك «شيئًا حول أسقف» ما ولكن ربما كان ذلك فقط قبل وصوله. وفى كلتى الحالين فإن المحصلة النهائية، حينما جاء الأساقفة محل السؤال واستقروا فى النهاية، كانت متواضعة تمامًا عن التوقعات. إذ لم يكن ثمة أثر للطغيان. ولكن فى كل حالة كان ثمة أسقف يمثل كنيسة تصوغ دعوى منافسة للشعب المختار، يتم الإحساس بأنها تهدد الجماعة التى تعتقد أنها تملك هذا اللقب، سواء بالتصريح أو التلميح. إذ كان الأسقف الأنجليكانى يمثل دعوى إنجليزية فى مواجهة الزعم الأمريكى، كما أن الأسقف الكاثوليكى كان يمثل الزعم الرومانى فى مواجهة الزعم الإنجليزى. ويلاحظ بايلين «أن الخوف من فرض السلطة الأسقفية الأنجليكانية على هذا النحو يجلب إلى البؤرة حزمة من الأفكار والمواقف والاستجابات التى تحيا مع روابط عمرها عدة قرون مع البابوية، وآل ستيوارت واليعقوبيين تدخل مباشرة فى الصراع الثورى...». وقد حفزت بين الزعماء الفاهمين تمامًا للرأى العام... «إحساسًا عامًا بأنهم يعيشون فى عالم تآمرى، كان كبار الموظفين فيه ينطقون بما لا يقصدونه فى الحقيقة، وأن كلماتهم كانت إشارة إلى خطة شريرة آثمة».

وفى مفهوم سكان نيو إنجلاند، وچون آدامز على وجه الخصوص، كان الأساقفة سيئين بطبيعتهم، سواء كانوا أنجليكانًا أو كاثوليكًا، آدامز الذى كان أول نائب رئيس وثانى رئيس للولايات المتحدة كان من أكبر المؤثرين قبل الانفصال عن انجلترا. ولم يكن متاحًا أمامه أى مثال للسلطة الأسقفية يخلو تمامًا من السلطة السياسية أو العلمانية، مثل الأساقفة الميثوديين المحدثين فى الولايات المتحدة. وهكذا كان الأساقفة الذين عرفهم مربوطين دائمًا بنظام أكبر، إلى التاج الإنجليزى وحكومة جلالة الملك، أو إلى روما والڤاتيكان. وكان هذا هو السبب فى كونهم خطرين.

وكانت فى ذهن آدامز دراسة قام بها الڤايكونت موليسورث عن كتب الديموقراطية فى الدنمارك قبل قرن من الزمان: وكانت دراسة موليسورث المعنوية «An Account of Denmark» من القراءات المطلوبة فى أمريكا قبل الثورة. ويعلق بايلين بقوله:

«كان الخوف من اقتران الطغيان المدنى والطغيان الكنسى ببعضهما أمرًا مركزيًا بالنسبة لفهم چون آدامز للتاريخ الأمريكى وكذلك للأزمة الثورية. وكتب أنه كان كراهية، وفزعًا، ورعبًا من الاتحاد الجهنمى الذى سبق وصفه، الذى خطط ووجه وأنجز الاستيطان فى أمريكا"، وكان نفس هذا الاتحاد بينهما هو الذى واجه الأمريكيين سنة ١٧٦٥ م. "ويبدو أن هناك تخطيطًا مباشرًا ورسميًا لاستعباد أمريكا كلها. وهذا على كل حال يجب أن يتم عمله على درجات، ويبدو أن أول خطوة مقصودة هى التدمير الشامل لنظام آبائنا كله باستقدام القانون الكنسى والقانون الإقطاعى إلى أمريكا".

والسلطة البابوية، أى التزاوج بين كنيسة روما والسلطة المدنية العدوانية، كانت تُعتبر أكبر خطر، الخطر الكلاسيكى؛ ولكن كانت تلك مجرد حالة خاصة، على الرغم من كونها الحالة الأوضح فى الظاهرة الأكثر عمومية. وقد أشار موليسورث إلى "أنها كانت غلطة كبرى أن يُظن أن الديانة البابوية هى الوحيدة بين كل الطوائف المسيحية المناسبة لتقديم وتأسيس العبودية فى وطن يسود الظن فيه بأن السلطة البابوية والعبودية لايمكن أن ينفصلا عن بعضهما البعض... إنها ليست البابوية

بحد ذاتها ولكنه مذهب الطاعة العمياء، أيًّا كانت الديانة التى يوجد بها، هو الذى يدمر الحرية، وبالتالى يقضى على السعادة كلها فى أى وطن".

كان تصور أن كنيسة انجلترا تطلب من أعضائها الطاعة العمياء تصوراً عبثيًا بشكل واضح. والكاثوليكية التى كان آدامز يكتب عنها هى الصورة الكاريكاتورية لها فى كتاب فوكس الذى يحمل عنوان «Book of Martyrs» الذى كان قد صدر قبل مائتى سنة مضت، وليست هى الثقافة المعاصرة لڤيينا هايدن وموزار وبيتهوڤن.

كانت هذه هى الخلفية العاطفية الحديثة التى تعين على مؤسسى أمريكا أن ينظروا فى مسائل الكنيسة والدولة على أساسها. إذ كان التراث الذى ورثوه تراثًا لا يرفض مبدأ المؤسسة، أى أن ديانة واحدة يجب أن تنفرد بنيل إعانة خاصة، والتمتع بمكانة وحماية خاصة، فى مقابل درجة من سيطرة سلطة الدولة على شئونها. فقد كانت مستعمرة ڤيرچينيا قد أسست كنيسة انجلترا على هذا الأساس، أما ماساشوستس وغيرها فقد أسست كنائس طائفية؛ وعلى مدى فترة من الزمان منحت ماريلاند حماية خاصة للعقيدة الكاثوليكية الرومانية على الرغم من أن ذلك انتهى سريعًا. وخلف الخوف من الأساقفة الإنجليز كان الخوف من أن التاج الإنجليزى يفترض أنه يهدف إلى الوحدة والاتساق فى هذه الأمور، مع وجود كنيسة انجلترا فى جميع أنحاء المستعمرات الثلاث عشرة ومع وجود الأساقفة فى كل المدن الكبرى.

ومثل هذه الكنيسة كانت ستكون قابلة للمساءلة ليس فى أمريكا ولكن فى لندن، ولكن ذلك لم يكن يبدو مصدر القلق الرئيسى. وإنما كانت الديانات غير الراسخة، تلك الديانات التى شعرت أنها محرومة من الميزات بتجربتها مع كنيسة أخرى منافسة من الكنائس المستقرة، لدرجة أن البعض قاوموا بصراحة فكرة أن الولايات المتحدة الأمريكية البازغة يمكن أن تكون لها ديانتها الخاصة. وبعبارة أخرى فإنهم لم يثقوا فى رفاقهم البروتستانت. وهكذا ولنضرب مثلاً واحدًا، كان المعمدانيون فى كونكتيكت مستاءين من تأسيس الكنائس الطائفية فى تلك الولاية، لدرجة أنهم كتبوا إلى توماس چيفرسون عندما كان رئيسًا ليمتدحوا التعديل الأول (أى الفصل بين الكنيسة والدولة). وتلقوا منه رسالة جوابية قيض لها أن تصبح نصًا دستوريًا كلاسيكيًا.

«إننى إذ أعتقد معكم أن الدين مسألة بين الإنسان وربه وحدهما؛ وأنه لايقدم حسابًا عن إيمانه لأحد غيره أو عن عبادته؛ وأن السلطات التشريعية للحكومة تصل إلى الأفعال فقط ولا تصل إلى الآراء، فإننى اعتزم الاحترام العظيم لهذا الفعل من جانب الشعب الأمريكى كله، الذى أعلن أن تشريعاتهم لايجب أن تجعل أى قانون يحترم مؤسسة [معينة] للدين، أو يمنع بالتالى الممارسة الحرة، وبذلك يبنى سورًا يفصل بين الكنيسة والدولة».

كان مايعنيه چيفرسون الكنيسة بوصفها مؤسسة خاصة، فليس هناك دليل على أن الكونجرس كان يرغب فى أن يستبعد الدين بحد ذاته. **وأول رئيسين، واشنطن وآدامز، أعلنا عن أيام وطنية للصيام والتقشف - وهو بصراحة ما كان إعلانه من وظائف الكنيسة، وليس من واجبات الحكومة الفيدرالية. وبعيدًا عن الفصل، كانت مثل هذه الأعمال إشارة فى الاتجاه العكسى: الصهر الكامل للزعامة الروحية والزمنية فى منصب واحد (مثلما هو الحال فى انجلترا). وكانت هناك أمثلة أخرى باكرة: إصدار نسخ الكتاب المقدس لقوات الجيش الثورى، وتلاوة الصلوات قبل الاجتماعات فى الكونجرس، وإقامة خدمات الكنيسة فى المبانى الفيدرالية. وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد ولدت وهى تعتقد أنها شعب الله المختار، فمن الصعب أن نراها فى الوقت نفسه باعتبارها كيانًا علمانيًا تمامًا. والفصل بين الكنيسة والدولة يسهل بالفعل هذا الدمج للشخصية الدينية والسياسية للوطن الجديد فى كيان واحد؛ لأن هذا يعنى أنه ليست هناك مؤسسة داخل الدولة، بحيث تكون لها مزاعم منافسة بديلة.**

ولم تكن مسألة المؤسسة أحد المبادئ العلمانية، ولكنها كانت فى أساسها مسألة عملية - إذا كان لابد من تأسيس كنيسة، فأى كنيسة تكون؟ إذ إن بعض أجزاء المستعمرات الثلاث عشرة كانت تحت التأثير القوى للكنيسة البريسبيتارية الاسكتلندية، والبعض الآخر كان متأثرًا بالكنيسة الجماعية التى خرجت من عباءة الكنائس البيوريتانية المستقلة فى القرن السابع عشر؛ وكان المعمدانيون يتكاثرون فى كل مكان؛ وكان اللوثريون الألمان لهم مزاعمهم فى كل مكان، والكويكرز فى مكان آخر، والكالڤينيون الهولنديون فى مكان غيره، وكان لمعظم الولايات روابط

أنجليكانية قوية، على الرغم من أن هذا لم يكن التوازن الحذر الشامل بين الكنيسة السفلى والكنيسة العليا الذى كان يجرى فى انجلترا، ولم تكن هناك صيغة واحدة للمسيحية يمكن أن توافق عليها ڤيرچينيا الأنجليكانية وماسا شوستس البيوريتانية. ومنذ ذلك الحين لم تكن هناك معارضة كبيرة عندما تم اقتراح تعديل الدستور بحيث يمنع الحكومة الفيدرالية من تأسيس أية كنيسة باعتبارها الكنيسة الرسمية. بيد أن هذا لم يوقف الولايات منفردة من تأسيس كنائسها الخاصة ـ أو على الأصح استمرار كنائسها التى كانت قائمة قبل الثورة، ولم تؤسس ماساشوستس كنيستها الجماعية Congregational حتى سنة ١٨٣٣م، وهذه السابقة هى التى أوحت بالتعديل الأول فى الدستور الأمريكى ـ الذى يقيد السلطة التشريعية الفيدرالية وليست سلطة التشريع فى الولايات ـ بحيث لا يمنعها من إعادة تأسيس كنيسة جديدة إذا ما أرادت، على الرغم من أن هذا احتمال مستبعد تمامًا.

ولم تكن فكرة كنيسة مؤسسة غريبة بهذا القدر حتى بالنسبة للمفكرين الراديكاليين فى القرن الثامن عشر ـ إذ كان مفهوم الدولة العلمانية تمامًا، هو المفهوم الذى يصعب استيعابه. وما حدث بخصوص الكنيسة والدولة فى أمريكا فى ذلك القرن كان بطبيعة الحال استمرارًا لسياسات الكنيسة والدولة منذ القرن السابع عشر، وهو ما كان يعود بدوره إلى البداية الحقيقية لحركة الإصلاح الدينى فى انجلترا وانفصال هنرى الثامن عن روما سنة ١٥٣٢م.

كان استيلاؤه على سلطة الكنيسة قد طرح مباشرة السؤال التالى: طالما أن الدولة سيطرت على الكنيسة، فأى نوع من الكنيسة ينبغى أن تكون؟ وكانت إجابة چيڤرسون «أنها لم تكن من شأن الدولة» قد استغرقت زمنًا طويلاً حتى تصل؛ ذلك أن هنرى الثامن جعلها شغله الشاغل، وقتل أولئك الذين اعترضوا طريقه.

* * *